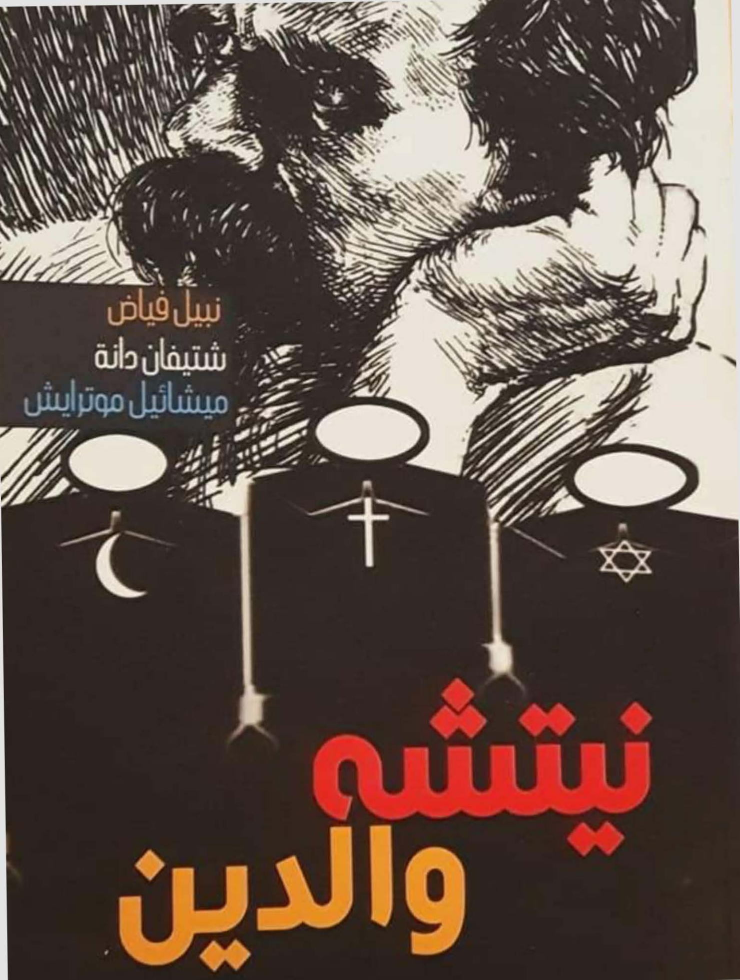


نبيل فياض
شتيفان دانة
ميشائيل موترايش
نيتشه
والدين

نيتشه والدين

نبيل فيّاض
ميشائيل موترايش
شتيفان دانه

الفهرس

بطاقة شكر

مرسلة إلى صديقي الفنان التشيكي الأصل - ابن براغ كافكا - والسويدي الإقامة والجنون: كارل بتشفارش. - على كل اللوحات التي قدّمها إليّ - هدية - كي أختار واحدة منها غلافاً لهذا العمل.

نبيل فيّاض

بطاقة شكر أخرى:

للصديقة أولي شندلر، على ما بذلت من جهد في «شفق الأوثان».

نبيل فيّاض

الإهداء:

إلى جيوردانو برونو، المفكّر الذي أحرقته محاكم التفتيش.

إلى إديث شتاين، المفكّرة التي أحرقتها النازيّة.

إلى حسين مروّة.

إلى كل من دفع حياته - وسيدفع - ثمناً لحريّة الفكر: نقدّم هذا العمل المتواضع.

نبيل فيّاض
ميشائيل موترايش
شتيفان دانه
دمشق 1993/9/3

هذا الكتاب

أوّل محاولة من نوعها ربما، يقوم بها ألمانيان وسوري، لتقديم كتاب عن مفكّر ألماني باللغة العربية. وهي، كأية محاولة، قابلة للنجاح ـ وللفشل، وهو ما سيحكم على هذه التجربة بالاستمرار، وتقديم أعمال أخرى عن كتّاب ألمان باللغة العربية وبالعكس، أو بالتوقف.

نحن لا ندّعي أننا أحطنا بكل ما كتب نيتشه عن الدين، أو أننا نقدّم تحليلات نقدية معقّدة للفكر الديني عند نيتشه ـ نحن، ببساطة، نحاول إعطاء القارئ العادي لمحة مركزة عن شتى المواضيع الدينية التي عالجها هذا المفكّر. ونحاول بالتالي إلقاء حجر في هذا المستنقع الراكد منذ زمن طويل.

ملاحظة هامّة:

ثمّة إفلاس أيديولوجي يضرب بأطنابه في كلّ مكان في هذه الأيام، ويعبّر عن ذاته في الدول المتخلّفة بأفضل ما يمكن في الردّة إلى الميثولوجيات الغيبية شبه المتهالكة.

في ـ أوروبا، تجري محاولات لاستخراج ما في كنوز الماضي الفكرية كنوع من التعويض ـ ويحتل نيتشه هنا صدر الصورة. وهذا الكتاب، هو محاولة لتقديم أبرز السمات النيتشوية، أي نقد الدين، دون تجميل أو تقزيم.

قد لا نوافق نيتشه على كل ما يقول، وقد لا نخالفه في كل ما يقول: لكن الواجب الموضوعي هو أن نقدّمه كما هو، لا كما نريد نحن أن نقدّمه.

إن أهم ما في محاولتنا هو تقديم ما لا نوافق عليه، ما نجده أسود وما نراه أبيض، ما نعتبره سلبياً وما نحن متأكدون من إيجابيته: عرض متوازن لا يسمح لعواطفنا باختراق تلافيف عقل الفيلسوف العظيم...

«طموحي هو أن أقول في عشر جمل ما يقوله كل فرد آخر في كتاب ـ وما لا يقوله كل فرد آخر في كتاب»[1].

نيتشه

(1) Götzen - Dämmerung, Streifzüge eines Unzeitgemäßen, 51.

«حدّ كل تُقى. ـ توصّل بعض الناس إلى التقيّ الذي يقول: «Credo quia absurdum est»، ويقدّم عقله قرباناً؛ ولكن لم يتوصّل أحد، على حدّ معرفتي، إلى ذلك التقيّ الذي يبعد عنه خطوة واحدة، والذي يقول: «Credo quia absurdum sum»[1].

نيتشه

(1) Morgenröte, 417.

لماذا نقرأ نيتشه؟!

لماذا نقرأ نيتشه؟

يقول نيتشه عن كتابه «عدوّ المسيح» في مقدّمة ذلك الكتاب البارز في تاريخ نقد الفكر الديني: «إنه كتاب لقلّة قليلة» ليس إلّا. ـ لماذا؟ لأن من يقرأ كتاباً كهذا «يجب أن يكون نزيهاً إلى درجة الخشونة في المسائل العقلانية، فلا يسأل ما إذا كانت الحقيقة نافعة أم ضارّة؛ وبهذه الشروط يفهمه، ثم يفهم بالضرورة» كل شيء. ـ ولماذا هؤلاء «قلّة قليلة»؟ يجيب نيتشه: لأنه «لا يوجد اليوم من يجرؤ على القوّة التي تطرح أسئلة، على الشجاعة لأجل المحظورات». لذلك فقرّاؤه «قلة قليلة». ـ والباقون؟ «مجرد جنس بشري».

تحطيم العقل:

قبل أكثر من قرن، قال نيتشه: «ما من شيء أغلى ثمناً من قطعة العقل الصغيرة وشعور الحرّية اللذين يشكّلان كبرياءنا الآن»[1]. ـ فإلامَ وصلنا اليوم؟

إن قطعة العقل الصغيرة هذه في طريقها إلى الضياع؛ فالعقل في خندقه الأخير في حالة دفاع مستميت عن الذات: إنه يصارع من أجل البقاء. ـ لماذا؟ هكذا هو عصرنا! فالميزة الأبرز لهذه المرحلة من تاريخ العالم هي الإفراط الشعوري: ثمة هروب من الدماغ إلى القلب ثم إلى ما هو أدنى من ذلك؛ ثمة تحريض متواصل للشعور، والرغبة بمزيد من التحريض؛ ثمة إغلاق ذاتي للعينين

(1) Morgenröte, 18.

حتى لا يرى العقل مشاهد الزيف، فيدفعه الشك إلى التفكير ـ الفعل الذي لا يريده أحد.

نعم! ما من أحد يستطيع الآن تحمّل الشك: إنه يخافه؛ يخاف أن يدمّر الشك كيانه وأمانه الذاتيين، رغم أن الشك مجرّد بداية للتفكير الفاعل ـ فماذا يفعل؟ يبحث عن اليقين، فيجده بأسرع ما يمكن. وأين يجده: في ذاته؛ من ذاته؛ من بحثه الذاتي؟ لا! فثمة رؤوس ملمّعة تمتلك دلائل قاطعة وحقائق مطلقة تبيعها لأصحاب الشكوك، وتحوّلهم بالتالي إلى «مجرّد جنسٍ بشري» ـ قطيع!

وماذا بشأن قراراتنا؟ هل هي ناضجة، متأنّية، تأتي عقب معلومات كافية؟ لا: إنها قرارات بدافع الواجب. هنالك ألف طريقة للوصول إلى قرار لا علاقة له بالتفكير العقلاني: بعضهم يتبنّى قرار شخصٍ، لأنّه يحبّه؛ بعضهم يتبنّى أيّ قرار، لعجزه عن المبادرة؛ وبعضهم تأتي قراراته نتيجة عوامل بيئية، مثل حروق الشمس أو تغيّر الهواء. باختصار: من الصعب علينا الآن الوصول إلى قرارٍ عقلاني في أية مسألة: لا توجد معلومات كافية أو غير مغرضة؛ لا يوجد وقت للتفكير العميق ـ كل أنواع العمق مفقودة.

هل الحب أو الكراهية برهانان مطلقان؟ إطلاقاً: فتجربة شعورية واحدة قادرة على قلب الأمور رأساً على عقب، وتحويل السلبي إلى إيجابي، في يوم وليلة. وهذه «الأيديولوجيات»؟! إنّها رداء شفّاف يغطّي أغبى المشاعر، وأسوأ أنواع الجشع والحقد؛ إنّها رغبة الإنسان بأن يصبح سجين شعور يقدّم ذاته كمطلب للمزيد من الحرّية؛ إنّها عبادة الحسيّة التي تعتقد أن نقيض المشاعر، أي التفكير، «يحتضر».

هذا كتاب «لقلّة قليلة» ـ قلّة نخشى أن تكون الآن في طور «الاحتضار». قلّة لا تطلب، أوّلاً، انطباع المشاعر في المسائل العقلانية؛ قلّة ما تزال تحاول أن لا

تفكّر بأعصابها؛ فلّة ترفض أن تحبس العقل في صحراء العواطف، وأن تفتح الباب على مصراعيه للغرائز ـ وأية غرائز!!! ـ كي تتكلّم.

أن تقرأ نيتشه، كي لا ترفضه سلفاً، وأن تعرف لماذا ـ هذا مهم. لكن الأهم: أن تعرف أين كان على حق.

القارئ العربي:

نيتشه فيلسوف ألماني: فماذا يعني للعرب، خاصّة وأنه ألّف كتبه في جوّ حضاري مختلف تماماً عن واقع البلدان العربية اليوم؟ وفوق ذلك، فقد قاتل نيتشه في فلسفته ضد المسيحية ـ فلماذا على القارئ المسلم أن يهتم بنقد المسيحية؟ وقد كان نيتشه معجباً بالدين الإسلامي والحضارة العربية؛ حيث اعتبر الإسلام «أقوى» من المسيحية، عندما قال: «الإسلام يشترط رجالاً»[1].

إن نيتشه واحد من أعظم الفلاسفة الذين عرفتهم البشرية ـ أي إنّه فيلسوف عالمي: وهذا سبب كافٍ للكثير من المثقفين العرب حتى يتعرّفوا على فلسفته. ومن يتعرّف على فلسفته، حتى وإن لم يفهم منها سوى قطعة صغيرة. فسوف يتثبت حتماً من كلامنا السابق.

إن الرغبة في فهم نقد الفكر الأخلاقي، خاصة نقد الفكر الديني، تفرض على المثقف العربي الاهتمام أكثر بفلسفة نيتشه: فهي من ناحية، تُفْرح من يبحث عن «خلاص» من الدين وقمعه لأنه يجد في هذه الفلسفة براهين مدمّرة «للحقائق الدينية» أو لأيّ نظام أخلاقي آخر؛ ومن ناحية أخرى، فإن معرفة نيتشه تفيد المتدينين أيضاً، لأنهم يتعرفون فيها على أقوى الاعتراضات على إيمانهم؛ ومن يتعرّف على الآراء المعاكسة لقناعاته ومواقفه الإيمانية عموماً، يستطيع

(1) Der Antichrist, 59.

توضيح فلسفته بشكل أعمق، إن لذاته أو للآخرين. أما إذا كان المتديّن يبحث عن حقيقة ـ أو ربما: «الحقيقة» ـ فقد يشكّل هذا مدخلاً له إلى فلسفة جديدة، أو خطوة نحو حقيقة جديدة، كانت مغلقة أمامه من قبل.

الفكر النيتشوي... والفكر الديني

لا يمكننا أبداً، موضوعياً، وضع من لا يشاركنا نمطية قناعاتنا الدينية، في خانة الإلحاد.

لقد تميّز نيتشه، كأحد رموز الفكر الحديث، بفهم عميق لبواعث الدافع الديني؛ كما حلّل، بوعي مدهش، الأبعاد النفسية للتعصّب، بكافة أشكاله؛ وقدّم شرحاً وافياً للنوازع الخفية الكامنة في رجل الدين المتعصّب ـ وقطيعه: كل ذلك بلغة رمزية، ساخرة، موجزة.

لكن لاستيعاب آراء غير مألوفة، كآراء نيتشه، يجب أن نحرّر أنفسنا أولاً من قيود التحامل المسبق، ومن أسر المشاعر التي غالباً ما لا تألفه. ونحن نعرف تماماً، أن بعض من يُحس أن النقد النيتشوي للتقوقع الديني يعرّيه، يُستفزّ، فيشهر أسلحته التقليدية اللامنطقية، من موقع العاجز، الذي يشعر بعوز مطلق للموضوعية.

من أهم سمات التحضّر: الحوار المنطقي الحرّ؛ فهم الآخر من موقعه لا من موقعنا؛ الدخول العقلاني في تجارب غريبة عنّا؛ وضع الهوى والشعور جانباً في أية مواجهة فكرية غير مألوفة ـ وكل ذلك يغني تجربتنا الذاتية، ويدفع بها أكثر نحو الكمال: الطريق الأقرب إلى تنامي المعرفة.

تكمن أهمية الأفكار النيتشوية في رفضها «المطلقيات في ذواتها»: إنها في صيرورة تجاوز ذاتي دائمة؛ فكل الآراء قابلة باستمرار لإعادة نظر تقويمية نقدية،

بما في ذلك «المفاهيم ـ المفاصل»: مثل المفهومين النيتشويين «أبولوني» و«ديونيسي». وفيلسوفنا ذاته، يقول: «الرغبة بنظام لنقص في الكمال»[1]. مقابل ذلك، فالأفكار الدينية تضع المطلقيات نصب أعينها أوّلاً: مطلقيات غير خاضعة لصيرورة التجاوز الذاتي؛ ثم تحاول الاستدلال عليها ببراهين ذات طبيعة عقلانية. هذا يعني أن نيتشه آمن بالنسبية في الحقائق، وهو إيمان موجود؛ في حين تؤمن الأفكار الدينية بالمطلقية في الحقائق، وهو إيمان بشيء يحتاج إلى برهان، لأنّه إذا قلنا إن العقل غير مكتمل، وهو في صيرورة اكتمال دائمة، فهذا يعني حتماً أن المعرفة غير مكتملة أيضاً: فكيف يُقَال إذن إن هنالك معرفة بالمطلق ـ كمال المعرفة؟!

لماذا لا توجد فلسفة عربية؟

إذا ما قمنا بالبحث عن الفلسفة العربية، فسوف نجد أن الفلسفة العربية ـ الإسلامية تحتلّ واجهة الصورة؛ رغم أن الفلاسفة العرب ـ المسلمين كانت لهم مشاكل مع رجال الدين بشكل شبه دائم[2]. فالفلسفة كانت غالباً محط نقد رجال الدين المسلمين واستنكارهم ـ ولا نعتقد أن شيئاً من هذا تغيّر حتى الآن. مقابل ذلك، كانت المسيحية، تقليديّاً، أكثر احتراماً للفلسفة من الإسلام؛ ربما لأن المسيحية نشأت أصلاً على أرض الحضارة اليونانية حيث كان عليها أن تحارب ضد المذاهب الفلسفية التي انتشرت في زمن ظهورها، وهو ما أدّى بمرور الوقت إلى امتصاص المسيحية لكثير مما في تلك المذاهب: فقد أثرت

---

(1) Götzen - Dämmerung, Sprüche und Pfeile, 26.

(2) هنا قول عام يأخذ بعين الاعتبار الغالبية العظمى أوّلًا. لكن إذا ما تحرّينا الدقة، يمكن تقسيم الاتجاهات الإسلامية في تعاملها مع العقل والنقل، إلى ثلاثة اتجاهات رئيسة، برزت إلى الساحة منذ بدايات الإسلام: واحد اعتمد النقل أساساً، وآخر اعتمد العقل أساساً، وثالث وازن بين العقل والنقل ـ السُّنّة والإسماعيلية والاثنا عشرية، على الترتيب.

الأفلاطونية الجديدة بالدين المسيحي إلى درجة كبيرة؛ وفي القرون الوسطى، تعرّفت المسيحية على الأرسطوية، بفضل الفلسفة العربية ـ خاصة ابن رشد ـ وحاولت تفسير هذه الفلسفة بما يناسب التعاليم المسيحية. وحتى الآن، ما تزال المسيحية تصارع ضد المذاهب الفلسفية المعاصرة (ـ كالوجودية، مثلاً ـ)، وتحاول من ناحية أخرى أن تتبنى ما يفيدها من مختلف هذه المذاهب ـ يبدو أن هذا قدر المسيحية!

في الأرثوذكسية الإسلامية واليهودية أيضاً، ثمة انفصال تقليدي عموماً بين الدين والفلسفة: لماذا تتجنب الأرثوذكسية الإسلامية واليهودية الجدل مع الفلسفة؟ وهل هؤلاء الأرثوذكس غير قادرين على تجاوز أنفسهم في مسألة التفكير؟

لقد نشأت كل الأديان «السماوية» في منطقة الشرق الأوسط، لكن لم ينتشر منها في أوروبا «عموماً» إلّا المسيحية، المتأثرة بالفلسفة. ـ ربما لأن العقل الأوروبي لا يستطيع تحمل الدين دون «عسل» التفسير الفلسفي؟! لكننا نعرف أيضاً أن الفلسفة، بوصفها السؤال عن أسس المعرفة والتفكير، مشكّكة وتحب «القبض» على المشاكل؛ لذلك فهي مكروهة من قبل الذين لا يحبون «قبضاً» كهذا ـ وشكّاً أيضاً.

كثيراً ما يقال في الغرب، إن العرب وكل من يتكلّم لغة «سامية» (ـ التسمية غير دقيقة ـ) مغلقو العقل عموماً بالنسبة للتفكير الفلسفي، لكنهم نشيطون وماهرون في كل ما يتعلق بالمسائل الدينية والتشريعية؛ وقبلهم أيضاً كان اليهود الذين قدموا تراثاً دينياً تشريعياً ضخماً للغاية. فهل اللغة بالتالي ـ وهي العنصر الأوّل في التفكير ـ هي السبب في ذلك، خاصة وأن كثيراً من الفلاسفة الإسلاميين كانوا من غير العرب ـ ما يهمنا هنا اللغة التي يفكّر بها الفيلسوف وليس لغة كتابته؟! وهل إن الشخصية «السامية» مسؤولة عن ذلك: فهي تهتم عموماً بالنتائج أكثر من اهتمامها بالعلل والأسباب؟!

لا نستطيع أن نجيب هنا عن كل هذه الأسئلة: فهذا يخرج عن إطار بحثنا ـ لكننا نستطيع الإشارة باختصار إلى واحد من أكثر أعداء التفكير في هذه المنطقة: التعصّب!

التعصّب

منذ البداية الأولى، يكيل نيتشه المديح للفكر الوثني الإغريقي، ويشن هجوماً متواصلاً على مفهوم الوحدانية الدينية. فالوثنية، كما يراها الفيلسوف، تمثّل النظرة إلى الإنسان كذات؛ في حين إن الوحدانية، تمثّل النظرة إلى الإنسان كموضوع، وتخلق من ثمّ جوّاً من القمع. وهكذا، مثلاً، يمكن فهم التشدد اليهودي ـ وبالتالي: القمع ـ حيال الذات والآخرين؛ وربما الافتقار اليهودي للإنجازات الفكرية الهامة رغم ضخامة النتاج؛ في حين قدّم الإغريق للعالم واحداً من أعظم إنجازاته الفكرية حتى الآن.

إن التعصّب، الوجه الآخر للقمع، هو بحدّ ذاته تعبير خارجي عن خلل داخلي ممتزج بالتوتّر؛ شعور كامل بعدم الموثوقية بالذات مترافق بإحساس العجز. الأمر الذي يدفع بالفرد المتعصّب للجوء إلى محيطه: لونه، دينه، مذهبه، جنسه ـ طلباً للحماية. لكن التعصّب ليس دائماً «داء» العاجزين، فاقدي الثقة بذواتهم: للتعصّب وجه آخر، «نادر» جدّاً. ففي مشفى التعصّب، يجلس نوعان من البشر: واحد مريض، وهو الغالبية الساحقة، وآخر «نادر» غير مريض، يستغلّ التعصّب عند الغالبية الساحقة المريضة، بوعي «نادر»، لخدمة أهدافه الخاصّة ـ فهرسة الغالبية كقطعان ليس إلّا. لكن الخطر، كل الخطر، يكمن في «المبرّرات» التي يقدّمها النوع النادر، لجماعة القطيع، من أجل قمع كل من يهدّد مصالح «النادرين» ـ مبرّرات ماورائية دائماً؛ مبررات تجعل واحدهم يسلّم ذاته للقناعات الجاهزة، دون أدنى تفكير، فيعطّل عقله

تحت رايات الشعارات البرّاقة. وتزداد المشكلة تعقيداً حين يكون هذا ذا إرادة معطلة أصلاً. هذه المبررات، كما نراها، ليست أكثر من «مساحيق» تنظّف الذات من أية وخزة ضمير، قد يحدثها القمع للآخر أو للذات، في نفوس جماعة الغالبية: لتنطلق الذات من جديد، في قمع جديد.

نيتشه بالعربية. الآن!؟

في مقدمة كتابه غير المكتمل، «إرادة القوة»، كتب فيلسوفنا يقول عن معنى عمله: «كتاب للتفكير... ليس إلّا». ـ ونحن بدورنا نقدّم نيتشه بالعربية: «للتفكير... ليس إلّا».

فآراؤه:

حضّ على استقلالية العقل، ومن ثم الاستقلالية عموماً؛ والدفاع عن تلك الاستقلالية بكل الوسائل الممكنة.

تحريض للعقل على الإنتاج، العيش الحر، الفعل، والانطلاق في كل الاتجاهات.

دعوة للتفكير بشكل مختلف؛ لهجر الأماكن المغلقة، واستيطان الهواء الطلق.

ثورة على عبادة الحسيّة، التي تناقض التفكير فعلاً.

...

هل يمكن للعقل أن يبدع وهو مُحَجّم، مُقيّد، الأمر الذي يتنافى مع كينونة العقل ذاته، كوجود بلا حدود؟

لقد نُشرت مؤلفات نيتشه، الحافلة بكل أنواع «الاستفزازات» للمتدينين الأوروبيين، قبل أكثر من مئة عام ـ «ومات نيتشه على فراشه»! بل صار الآن واحداً من أبرز الفلاسفة المقرّرين في معظم كليات اللاهوت المسيحية الكبيرة،

كدراسة لمنهج في النقدية الدينية. فماذا يمكن أن نقول عن جوّنا الثقافي الديني الخاص، بعد أكثر من مئة عام على شيوع النيتشوية في أوروبا؟

نحن نعلم تماماً أن هذا الكتاب إعلانٌ للحرب على كافة أشكال التعصّب: حرب خطيرة، لأن التعصب يمتلك هنا رصيداً استراتيجياً هائلاً ـ رأي عام مُضَلَل، احتكار الألوهة لمصالح شخصية، إمكانيات إعلامية ومادية ضخمة...

إن إنكار الفكر النيتشوي ـ أقل ما نتوقعه من التعصّب ـ هو كمن يضع كفّه على عينيه، في وضح النهار، ويقول مستهزئاً: «غابت الشمس».

هوامش

نقدّم فيما يلي إشارات تعريفية لبعض المفاهيم النيتشوية التي يمكن أن ترد في سياق نص الكتاب:

«الإنسان ـ الفائق Ubermensch»: هو الإنسان الذي تسامت فيه إرادة القوّة إلى الإبداع.

«إرادة القوّة Wille zur Macht»: هي المحرّك الأوّل في الذات البشرية، كالجنسانية Sexuality عند فرويد: إن «إرادة القوّة المتسامية» تتجنّب الاعتراض الذي قد يظهر على مفهوم «الجنسانية المتسامية»، والذي يقول إن المادة المفروضة للباعث يمكن أن تذوب في تساميها ولا يمكن بالتالي أن تكون هدفه الفعلي. لكن نيتشه يلاحظ أن موضوع التسامي ليس الجنسانية بل العنف: والجنسانية مجرّد تعبير عن إرادة القوة.

«التفسّخ Décadence»: يستخدم نيتشه دائماً اللفظة الفرنسية Décadence. ويعني بذلك الحاجة إلى محرّضات متقوية ومتزايدة باستمرار من أجل الإحساس بالعيش.

اللغة والدين

العلاقة بين اللّغة والدين

الإنسان بحاجة إلى اللّغة، فهي جزء منه. يقف الإنسان في موقعه (على الأرض) دون دعم من الطبيعة: فهو لا يملك تلك الأسلحة الطبيعية، كالمخالب القوية أو الأسنان الحادة أو الأقدام السريعة ـ فقط: العقل والتفكير؛ حتى الغرائز ضعيفة عنده. لكننا نعرف جيداً، أن استعمال العقل والتفكير يعوّض نوعاً ما عن ضعفه هذا. ونحن نعرف أيضاً، أن التفكير مرتبط أساساً باللّغة، بمعنى أنه دون استعمال اللّغة، يبدو التفكير غير ممكن. وكل محاولة للتفكير دون استعمال اللّغة تقود دائماً إلى الفشل ـ ويعرف ذلك كل من حاول اختبار تلك المحاولة يوماً. نستطيع مثلاً الإحساس بشيء دون أن نتمكن من التعبير لغوياً عنه، لكن التفكير كتفكير يرتبط تعبيره عن ذاته باللّغة دائماً؛ والتفكير، كفعالية للعقل، هو «الوسيلة ـ السلاح»، الذي نؤثّر به في العالم.

من ناحية أخرى، ففي «زمن من اختراع اللّغة»، كانت «حضارة البشرية» في مستوى متدنٍّ، فالتفكير في ذلك الزمن كان في بداياته كناتج عن انوجاد اللغة: وربما العكس. والناس آنذاك لم تكن لديهم معرفة بالمنطق أو أيّ علم آخر، فالمنطق والعلوم الأخرى خرجت كلّها من قلب التفكير غير البدائي وتعبيره اللغوي. ونحن عموماً لا نعرف شيئاً عن بدايات اللّغة «كيفياً ـ زمنياً»، لكننا نستطيع القول إنها كانت مرتبطة بالبيئات وبالضرورات الإنسانية. في هذا السياق، يقول فيتغنشتاين: «إن اللّغة تعبير عن طريق حياة»[1]. هذه الفكرة

(1) Ludwig Wittgenstein, philosophissche Untersuchungen, 23.

تقودنا بالضرورة إلى اعتبار أن البرهان المنطقي على وجود الله أسس أصلاً على اللاعقلانية؛ والصوفية تعتمد جوهرياً على هذه الفكرة: لأن أساس اللّغة غير لغوي وهو بالتالي غير منطقي.

ينظر الإنسان إلى كل ما يحيط به عبر نظّارة اللّغة. ونستطيع أن نقارن هنا، بين أهمية اللّغة في التفكير، وأهمية العيون في الملاحظة (والإدراك). وتوجد لدينا أنماط لغوية كما توجد أنماط إبصارية. ومن الممكن، مثلاً، أن نرتّب تناقضات العقل الصافي (كانط) ضمن جدول أغلاط اللّغة: ومن هذه التناقضات، فكرة المطلق، أو كل الأفكار المطلقة. لأننا نجد هنا أن، اللّغة مستخدمة في مكان ليس له أدنى علاقة بالواقع. ـ لكنّنا نتساءل: ماذا يعني الواقع؟ ونجيب: إنه كل ما يمكن للإنسان تصوره[1]، وهو في نهاية الأمر يعني كل ما هو مرتبط بالملموس ـ العالم النسبي. لذلك فالعالم الذي نركّز عليه في اللّغة ليس الحقيقة بأكملها بل جزء منها فقط على الأرجح ـ وربما الجزء الأهم. إن العالم الذي نلمسه بوساطة اللّغة مركّبٌ إلى حدّ ما من قبل الإنسان ذاته، فقد ركّب الإنسان عالمه وفق رغباته وتصوّراته. أما مطلب البحث عن الحقيقة على يد اللّغة والمنطق فقد جاء متأخراً، في الفلسفة، وذلك بعدما تطوّرت الحضارة الإنسانية.

اللّغة القديمة... والتفكير الحديث

في تفكيرنا الحديث، ما نزال نستخدم مفردات اللّغة القديمة، وتصوّراتها القديمة؛ «فنحن سجناء قواعد نحو اختُرعت في مرحلة مبكّرة من التطوّر الإنساني، ويبدو أن عقلنا مشروط بأقدم الانطباعات، لأننا لا نستطيع التفكير إلّا باللّغة: فالتفكير العقلي هو تفسير وفق مخطّط لا نستطيع التخلّص منه»[2].

(1) هل يمكن أن نتصوّر من هو الله؟

(2) Der Wille zur Macht, 522.

رغم ضربها في أعماق التاريخ، وقِدم تصوّراتها. فاللّغة تطوّرت عبر الزمن، وإن ببطء شديد، وأصبحت وسيلتنا للتعبير عن أحاسيسنا ـ حتى أعمق مشاعرنا الداخلية. لكن المشاكل التي فُرِض على الإنسان حلّها صارت أكثر تعقيداً. واللّغة اليوم بالتالي تلبّي حاجات أكثر من تلك التي لبّتها سابقاً. هذا يعني: أنه ربما عوضت اللّغة (ـ والتفكير ـ) عن فقدان الأسلحة الطبيعية السابقة، لمساعدة الإنسان في «الصراع من أجل البقاء»، رغم أن نيتشه، في الواقع، رفض المنظور الداروينى الخاص بالنشوء والارتقاء، في كتابه «شفق الأوثان» على وجه التحديد.

تعوّض اللّغة عن عدم استعمال الغريزة: «الإنسان هو الحيوان دون غريزة». لم يكن الإنسان يعرف من طبيعته الذاتية ما هي غايته: لذلك كان عليه أن يجد غايته «بشكل مستقل»، أي دون مساعدة من فوق. وهكذا، قام بتحديد كل ما ظهر له عبر لغته، وتركيب الظواهر وفق احتياجاته. ومن ثم صاغ أمثولته الخاصة للعالم. فالظواهر بالتالي كانت التركيب الذي أخرج منه التفكير الإنساني الأوّلي أوّل أنموذج العالم. ـ كيف كوّن الإنسان تدريجيّاً إذن، أوّل أنموذج «لتفسير» العالم؟

نظر الإنسان إلى ذاته، فوعى وجود كينونته؛ ثم عرف أنه فاعل وأنه بحاجة إلى أشياء مختلفة. وهكذا، اخترع غاياته «بشكل مستقل»؛ وكانت «الغايات» أهم شيء عنده لأنها سمحت له بتفسير فعل كل ما هو قادر على الفعل. وجد الآن في الدنيا نظاماً ـ فكل شيء مرتبط بالإنسان ذاته. وعن طريق مقارنته لذاته بالفاعلين الآخرين، استطاع أن يتصوّر أنه يفهم أكثر. ودخل هذا التصوّر في ذواتنا إلى أقصى حدّ لأنه مُقْنع؛ كذلك فإن كل كلمة نقولها تساهم في إثباته. إذن إن أوّل أنموذج للعالم كان ممثلاً في الإنسان ذاته. ومن تفكير الإنسان بذاته كأمثولة، خلق إلهه؛ مع أن «الكتاب المقدّس» يعكس الآية، حين يقول: «خلق

الله الإنسان على صورته»[1]. وعلى هذا يعلّق نيتشه، قائلاً: «أيهما يا ترى؟ هل الإنسان مجرد خطيئة لله؟ أم الله مجرد خطيئة للإنسان»[2] ـ ونيتشه يعتبر أن الله أخطأ في خلق الإنسان، لأنه جعل لنفسه منافساً.

إن أهمية اللغة في تطوير الثقافة، برأي فيلسوفنا، تكمن في حقيقة أن الإنسان «في اللغة يقيم من ذاته عالماً آخر فوق... إلى حدّ أن الإنسان، لعصور طويلة، اعتقد بالمفاهيم وبأسماء الأشياء، كاعتقاده بالحقائق الأبدية، وانتحل لذاته ذلك الفخر الذي رفع به نفسه فوق الحيوانات: حيث اعتقد فعلاً أنه باللّغة امتلك معرفة بالعالم. فنحّات اللّغة لم يكن متواضعاً حتى يعتقد أنه فقط كان يعطي الأشياء دلالات، واعتقد عوضاً عن ذلك أنه بالكلمات كان يعبّر عن معرفة فائقة بالأشياء: لكن اللّغة، في الواقع، هي المرحلة الأولى من الانشغال بالعلم»[3]. ـ فكيف توصّل الإنسان إلى اعتقاده أنه باللّغة امتلك معرفة بالعالم؟!

خطأ «العقل» في اللّغة

للإجابة عن السؤال السابق، لا بدّ أن نشير إلى خطأ شائع، يتحدث عنه نيتشه بإسهاب، وذلك «حين يجبرنا تحاملنا لمصلحة العقل على افتراض وحدة، هوية، استمرارية، جوهر، علّة مادّية، كينونة» ـ خطأ يتملّك أعيننا دائماً، تقف لغتنا «كمدافع مستمر» عنه. لكن «اللّغة ترجع في أصلها إلى عصر أكثر علوم النفس بدائية: نجد أنفسنا وسط فتشية[4] خام، حين نتذكّر الفرضيات الأساسية

(1) تك 1:26، 27؛ 3:5؛ 6:9.

(2) Götzen - Dāmmerung, Sprüche und Pfeile, 7.

(3) Menschliches, Allzumeneschliches, 11.

(4) من «فتش fetish»، بمعنى «بُد»، وهو شيء كانت الشعوب البدائية تعتقد أنه له القدرة على حماية صاحبه أو مساعدته. والفتشية، تعني عبادة البد، أو التوقير اللاعقلاني لفكرة أو عرف؛ وفي علم النفس: تركيز الشعور الجنسي على الأشياء أو أجزاء الجسد المرتبطة بهذه الأشياء.

لميتافيزيق اللّغة ـ العقل، هذا الذي يرى في كل مكان فعلاً وفاعلاً؛ هذا الذي يعتقد عموماً بالإرادة كعلّة؛ هذا الذي يعتقد بالأنا، الأنا ككينونة، الأنا كجوهر، والذي يسقط اعتقاده «بالأنا ـ الجوهر» على كل الأشياء ـ وهكذا فقط يخلق المفهوم «شيء». إن كلمات نيتشه السابقة تشير إلى وجود وهم يقول، إن وجود كلمة يضمن وجود شيء تدلّ عليه هذه الكلمة. فبسبب قواعد اللّغة التي ورثناها عن ماضٍ سحيق، أسست فينا أحاسيس العلاقة بين الحامل والمحمول، ونحن بالتالي لا نستطيع التوقف عن التفكير بعلاقة «الحامل ـ المحمول» هذه، حتى في العالم الواقعي، وذلك على شكل «شيء ـ فِعْل الشيء»، «كينونة ـ عمل». وهكذا، فنحن نؤمن «بالله ـ العالم» فقط لأننا نعتقد «بالحامل ـ المحمول».

لكن الحقيقة أن الكينونة التي يعتبرها الجميع «علّة»، هي مشتقة كمفهوم، من المفهوم «أنا»، أما الإرادة، التي هي برأي نيتشه «مجرّد كلمة»، فقد اعتبرت منذ البداية «شيء يؤثر ـ وإن الإرادة مقدرة».

لقد استنتج العلماء، خطأ، أن «مقولات العقل لا يمكن أن تكون متأصلة في العالم التجريبي ـ فالعالم التجريبي بكامله كان متنافراً معها فعلاً». لذلك ارتكبوا «الخطأ الفادح ذاته»، حين قالوا: «كنّا نقيم ذات مرة في عالم أعلى» ـ بدل أن يقولوا: «في عالم أدنى بكثير، والذي كان الحقيقة». وتوصّلوا بالتالي إلى استنتاج خاطئ، مفاده: «لا بد أننا كنّا إلهيين، لأننا نتملك عقلاً».

«العقل في اللّغة: آه من تلك الحيزبون المخادعة».

وهكذا، يصل نيتشه إلى صيغته المتطرّفة، في حديثه عن «خطأ العقل في اللّغة»، والتي تقول: «أخشى أنّنا ما نزال نعتقد بالله، لأننا ما نزال نعتقد بقواعد النحو»[1].

---

(1) Vgl., : Götzen - Dämmerung, Die «Bernunft» in der Philosophie, 5.

ونستطيع نحن، بهذه الطريقة، تلمّس جذور معرفتنا جيداً، ونحدّد من ثم من أية حاجات في ذواتنا نشأت اللغة؛ ونستطيع بالتالي أن نحاكم تفكيرنا وتعيينات تفكيرنا بشكل حقيقي. وهكذا حتى نكتشف أن تفكيرنا ومعرفتنا ليسا من الأعالي، بل من هذه الدنيا الأرضية. «وربما يظهر لنا ذات يوم أن اللفظتين الرهيبتين اللتين قوتل وتؤلم من أجلهما كثيراً جداً، كلمتي الله والخطيئة، ليستا أهم مما تبدو عليه لعبة الأطفال لرجل عجوز»[1].

إذن إنّ كل ما نفكّر به، وكل ما نؤمن به، هو نتيجة فعل عقلنا؛ فالإنسان بالتالي هو الصانع الفعلي لقيمه وهو المحدّد للخير والشر. وقد تمسّك نيتشه بأن يتولّى الإنسان مسؤولية خلق قيمه، وأن لا يترك مسؤولية هذا الخلق لقوّة (مثل الله): لقد رفض بالكامل ترك المسؤولية لقوة متخيّلة أو مطلقة تسمو على العقل البشري وقدراته اللّغوية.

على أساس الخداع اللّغوي ذاته، يرفض نيتشه أيضاً مبدأ «حتمية الطبيعة»، التي يتحدّث عنها الميتافيزيقيون «بفخار بالغ»، و«كأنها كانت موجودة». فهو يقول، مخاطباً الميتافيزيقيين: «إن حتمية الطبيعة هي نتيجة تفسيركم وفِقْه لغتكم السيئين»[2]. كذلك فإن الفيزيقيا، برأيه، «هي أيضاً مجرد تأويل»، أي، إجابة محضرة سلفاً للسؤال عن «العالم، وليست شرحاً له»[3]. وهكذا، فبرأيه، إن «الكلمة والمفهوم هما السبب الأوضح لاعتقادنا في عزل مجموعات الأفعال: فنحن لا نعيّن بهما الأشياء فحسب، بل نعتقد أنّنا بهما نمسك بما هو حقيقي في الأشياء»[4].

---

(1) Jenseits von Gut und Böse, 56.
(2) Ebda, 22.
(3) Ebda, 14.
(4) Der Wandered und sein Schatten.

العلاقة بين اللّغة ونماذج الألوهة: أمثلة!

من المتعارف عليه عموماً أن يسوع المسيح كان عبرانياً يتحدّث الآرامية، وهي لغة غير بعيدة عن أختها العبرانية. لكن المسيحية، كديانة، خاصة بعد بولس الرسول، كانت يونانية شكلاً ومضموناً. فالأناجيل الأربعة، التي بين أيدينا حالياً، يونانية اللّغة، رغم أن أحدها، لم يكتب أصلاً باليونانية ـ لكن النص الأصلي مفقود، ولا يوجد لدينا الآن سوى النسخة اليونانية المترجمة عن ذلك النص الأصلي. كما أن الرسائل، خاصة رسائل بولس، هي قطعة من عالم الهلينية الفكري. واللّغة اليونانية، أصلاً، هي لغة العقل والفلسفة. لذلك نجد أن الإله المسيحي يأخذ شكلاً فلسفياً غير مبسط. بل لقد استخدمت المسيحية علم المصطلحات الفلسفية اليوناني للتعبير عن لاهوتها. ومن ذلك مثلاً، مصطلح «لوغوس Logos» (ـ الكلمة ـ)، الذي طُبِّق على يسوع المسيح. وفي اعتقادنا أنه لولا خروج المسيحية من الأسر اليهودي، لغوياً وفكرياً، لظلّ يسوع، مثله مثل الكثيرين من اليهود الذين ادّعوا أنهم المسيح المنتظر، حبيس كتب تاريخ الانشقاقات اليهودية الداخلية.

مقابل الإله المسيحي الواحد، ذي الأقانيم الثلاثة، أكثر آلهة الديانات الحالية الكبرى انغماساً في العوالم (اللغوية ـ الفلسفية)، يقف يهوه، إله اليهود القبالي، البعيد تماماً عن التحديدات «اللغوية ـ الفلسفية»: إله هو نتاج للغة شعرية، بدوية، غير معقّدة؛ ولشعب بدوي بعيد عن روح التحضّر، وتعقيداتها اللغوية الفكرية. لذلك جاء هذا الإله يحمل روح شعبه وروح لغته: إله كخيال الشعراء الصحراويين، «يسكن في الأعالي، لا يمكن للّغة أن تعبّر عنه». وقد ساهم الانغلاق اليهودي في حبس يهوه في أقفاص لغوية تعود إلى زمن قديم جدّاً: زمن البداوة الأولى. لكن حين ساعدت الظروف اليهود على كسر عزلتهم، خاصة في تجربة الحكم العربي في الأندلس، استطاع

هؤلاء تقديم شكل ألوهة يختلف للغاية عن يهوه التقليدي، يحمل الكثير من اللّمسات اليونانية: القبالة.

كان الإله الإسلامي بعيداً أيضاً عن التحديدات «اللغوية ـ الفلسفية». لكن التقاء الإسلام باليونانية، على يد الإسماعيليين تحديداً (ـ أفلوطينية إسلامية ـ)، أوصل إلى شكل للألوهة، هام للغاية، قريب إلى حدّ ما من تجارب مماثلة في ديانات أخرى؛ لكن «بدواً» آخرين، أجهضوا التجربة الإسماعيلية العقلانية في أوج نضوجها، وأعادوا زواج الإسلام باليونانية إلى نقطة الصفر.

الميتافيزيق

الميتافيزيق والألوهة

الميتافيزيق تعريفاً، هو علم ما وراء الطبيعة، أي إنّه العلم الذي يتناول قضايا ليست لها علاقة بالواقع. ولذلك يهتم به كل من يحتاج إلى أساس علمي لغير الواقعي. لكن المعنى الأصلي لتعبير «ميتافيزيق» لم يتضمّن بالضرورة معرفة ما وراء الواقع أو ما وراء الطبيعة. فأرسطو، مؤسس «الميتافيزيق»، لم يعنِ به العلم عن الأشياء التي ليس لها ارتباط بالواقع، وذلك حين دوّن مؤلفاته «الأربعة عشر»، التي جمعها بعده أندرونيقوس. إنما تسمية «ما وراء الطبيعة»، جاءت بعد موت المعلّم، أرسطو.

لقد حاول أرسطو، في كتيباته الأربعة عشر، البحث في مبادئ تفكيرنا، وكذلك في مبادئ ـ أو أسس ـ الكينونة. لكن إذا أردنا أن نفسّر الكينونة، فيجب أن نحدّد معنى كل ما هو موجود، كل ما هو يكون ـ ما هي بالتالي الصفة المناسبة لكل ما هو يكون؟ يجب أن تكون هذه الصفة «شيئاً ثابتاً» في كل ما هو موجود، لأنّنا في تعريفنا للكينونة، بحاجة إلى جوهر لا يتغيّر. وكي نجد جوهراً في كل ما هو موجود، لا بدّ أن نخترع عالماً آخر، لأننا نعرف أنّه في عالمنا هذا، لا توجد صفة واحدة لكل ما هو موجود، سوى صفة وجوده فقط. إن أيّ شيء يختلف عن الشيء الآخر، وحتى وإن صنّفنا أشياء مختلفة في باب واحد من أجل تنظيم معرفتنا، فذلك غير صحيح تماماً.

يقول نيتشه في هذا الصدد: «الميل للتعامل مع التشابه على أنه الشيء ذاته، هو ميل غير منطقي ـ لأنه لا توجد الأشياء ذاتها في العالم ـ وهو (أي،

الميل) الذي خلق أوّلاً أسس المنطق»[1]. هذا التصنيف هو تعميم لأشياء لها الصفات ذاتها أو أنها متشابهة على الأقل. وهذه الصفة المعيّنة للأشياء من نوع واحد، هي، برأي الميتافيزيقيين، جوهر كل تلك الأشياء - لكن تكوين النوع «الواحد» يأتي نتيجة تعميم، ليس إلّا.

الميتافيزيق هو علم البحث عن الجواهر الثابتة في كل شيء؛ لذلك حرص الميتافيزيقيون على تحقيق تصنيفٍ للظواهر في حيّز لا يطاله تغيير أو تبديل. ففي الماضي، حين كانت علوم ما وراء الطبيعة «مَلِكة» الفلسفة، احترم الفلاسفة الميتافيزيق احتراماً كبيراً؛ لكن بعدما احتلّت العلوم الدقيقة مجال الفلسفة، تحوّلت علوم ما وراء الطبيعة إلى «عاهرة» ينفر منها الجميع، ولم يعد لها في الفلسفة تأثير يذكر. وقد لعب نيتشه دوراً هامّاً جدّاً في المعركة حول الحقيقة والعقل في الفلسفة، فوقف إلى جانب العلوم الدقيقة وحرية الفكر اللتين ظُلِمتا بقسوة من قبل الميتافيزيق وعبده (- عفواً: سيّده -) الدين، لفترة طويلة.

لقد «بحث» الميتافيزيقيون عن مفاهيم ثابتة ويقينية، فاخترعوا لهذه الغاية العالم الفكري الذي يُدعى ما وراء الطبيعة؛ لكن رجال الدين كانوا أفضل منهم بكثير، فقد «وجدوا» الثابت واليقيني في العالم الواقعي مباشرة، ودخلوا العالم الفكري فعلاً «إن شاء الله»، بعدما غيّروا اسمه طبعاً إلى «الجنّة».

بين لانغه ونيتشه:

في تعريفه للميتافيزيق، يقول نيتشه: «إنه العلم... الذي يتناول أخطاء الإنسان الأساسية - لكن كما لو أنّها حقائق أساسية»[2]. مع ذلك، فهذا لا يعني أبداً أن نيتشه يرفض الاعتراف بوجود عالم ميتافيزيقي: «يمكن لعالَم ميتافيزيقي

---

(1) Die fröhliche Wissenschaft, 111.

(2) Menschliches, Allzumenschliches, 18.

أن يوجد؛ فمن الصعب دحض إمكانية وجوده بالمطلق... لكن لا حاجة لنا به إطلاقاً... لأنه ليس باستطاعتنا تأكيد أيّ شيء عنه سوى أنه كان كينونة ـ أخرى، كينونة ـ أخرى يتعذّر فهمها أو الوصول إليها؛ وكان سيبدو بالتالي شيئاً ذا صفات سلبية. وحتى لو أُمكِن بالمطلق إثبات وجود عالم كهذا، فمن المؤكّد أن المعرفة به ستكون الأقل إفادة بين كافة أشكال المعرفة: بل هي الأقل إفادة من معرفة تركيب الماء لبحّار تغرق سفينته»[1].

وإذا كان الميتافيزيق عالماً «لا يمكن فهمه أو الوصول إليه»، فكيف استطاع الإنسان اختراعه، بل حتى التأكيد على حقيقته؟ يجيب نيتشه: «في عصر الثقافة القديمة الخشنة، اعتقد الإنسان أنه في الحلم يعرف عالماً حقيقيّاً آخر؛ ومن هنا جاء أصل كلّ الميتافيزيق. فدون حلم لم يكن الإنسان ليجد فرصة لتقسيم العالم. كذلك فإن الفصل بين الروح والجسد متعلّق أيضاً بمفهوم قديم جدّاً للحلم، وقد افتُرض إضافة إلى ذلك أن للنفس شبه جسد والذي هو أصل كل الاعتقاد بالأرواح وربما بالآلهة أيضاً. «الموتى أحياء، لأنهم يظهرون للأحياء في الأحلام»؛ هذا استدلال مضى دون تحدٍّ عدة آلاف من السنوات»[2].

تقدم الفقرات السابقة ملخّصاً محكماً لموقف نيتشه من التأمل الميتافيزيقي طيلة حياته. وإذا كان قارئ «شفق الأوثان» ـ واحد من أواخر كتبه ـ مثلاً، سيدرك أنه كان ماديّاً بالكامل، فهذا ليس تطوّراً متأخراً. فقد استمدّ نيتشه ماديته من كتاب فريدريش ألبيرت لانغه (1828 ـ 1875)، «تاريخ المادية» الذي قرأه عام 1866 ـ كتَبَ «شفق الأوثان» عام 1888 ـ وكان عمره 22 سنة. ولانغه فيلسوف وكاتب سياسي ألماني؛ كان في الفلسفة كانطيّاً محدثاً، فأعطى المذهب النقدي تأويلاً سيكولوجيّاً وفينومينيّاً. ساهم كتابه «تاريخ المادية» ولقد أهميتها الحالية

(1) Ebda, 9.
(2) Ebda, 5.

(1866) في دعم مناصري المادية، إضافة إلى مساعدته في إعادة الاهتمام بكانط؛ وهو ما قاد في نهاية القرن التاسع عشر إلى ظهور المدارس الكانطية المحدثة Neukantianismus.

تعني المادية، عند لانغه، باختصار: تعذّر الوصول إطلاقاً إلى أيّ عالَم ميتافيزيقي؛ الجهل المطلق بأيّ شيء فوق دنيوي؛ والاستحالة المطلقة لأيّ حديث عن أيّ عالم غير عالمنا «هذا». ويعتقد لانغه، أنه يمكن لِعالَم آخر أن يوجد، لكن ليس لدينا طريقة لمعرفة ما إذا كان موجوداً أم لا؛ وبالتعابير الكانطية التي استخدمها لانغه: لا نستطيع أن نعرف سوى العالَم الفينوميني (كما أكّد كانط ذاته أيضاً)، وبالتالي فإن كل ما نعرفه عن العالَم النومني مشترط بحقيقة أن معرفتنا به هي جزء من العالَم الفينوميني ـ العالم النومني، تعريفاً، هو العالم الذي يتعذّر الوصول إليه.

لقد تبنّى نيتشه آراء لانغه السابقة حتى أضحت عنصراً أساسيّاً في بنيان تفكيره. ورغم أن مادية كهذه لا يمكن اعتبارها إلحاداً صرفاً، إلّا أنّها غير متميزة عمليّاً عنه.

يفترض نيتشه سلفاً أن ما من مفهوم لإله يمكن أن يكون «حقيقيّاً»، لأنه لا توجد أدنى إمكانية لمعرفة أيّ شيء عن هذا الإله، حتى مسألة وجوده أو عدمه. لذلك لا يتساءل نيتشه، مثلاً، ما إذا كان الاعتقاد الديني صحيحاً أم مزيفاً، بل يتساءل عن «فحوى» التمسّك باعتقاد كهذا: تساؤل نجد أبرز تعابيره في الوجودية السارترية ـ «إن وجود الله أو عدمه لا يغيّر في الأمر شيئاً». فما هي أبرز المقولات النيتشوية في مواجهة التأمّل الميتافيزيقي؟

أ ـ الأخطاء الأربعة الكبيرة:

يقول نيتشه: «إن الاستنتاجات المزيفة هي القاعدة في العصور المبكرة؛ وميثولوجيا كل الشعوب، سحرهم وخرافاتهم، مبادئهم الدينية، وشرائعهم، هي

المناجم التي لا تنضب على صحة هذه الفرضية»[1]. ـ فمن أين جاءت هذه «الاستنتاجات المزيفة»؟!

1 ـ خطأ الخلط بين العلّة والمعلول:

من الأمور الراسخة في عقل الإنسان عموماً، أن الفعل يؤدي إلى نتيجة؛ بمعنى إذا فعلتَ كذا سينتج كذا. مثلاً: إذا أهدر شخص قواه دون راحة، فسوف يمرض. لكن نيتشه يرى أن مثل هذا الاستنتاج غير معقول، لأن كل من يفعل شيئاً بعينه، يكون عنده ميل لفعل كهذا؛ فمن يهدر قواه دون راحة، لا يضحى مريضاً بل هو مريض سلفاً، لأنه يفتقد إلى معيار الحياة الصحيحة أو المناسبة له. و«هذا الخطأ موجود ضمن أقدم عادات الجنس البشري وأحدثها أيضاً... وقد تقدّس... وحمل اسم دين، وأخلاق. فكل فرضية صاغها الدين والأخلاق تحتوي هذا الخطأ»[2].

إن كل أمر يطلب منّا الدين مراعاته، قائم على هذا النوع من الاستنتاجات الخاطئة. «فأكثر الصيغ شيوعاً في أسس كل دين وأخلاق: افعل هذا وهذا، وأمسك عن هذا وهذا، وسوف تكون سعيداً» ـ دون أدنى مراعاة لواقع اختلاف الناس. ومن يفكّر وفق هذه المقولة، لا يأخذ بحسبانه طبيعة الإنسان الفعلية، بل يهتم فقط برأيه الخاص المجرّد عن الطبيعة البشرية، ثم يعمّم ذلك بطريقة غير مقبولة أبداً.

في جوهر كل إنسان فرد، يوجد نوعه الخاص المناسب له، ومُراد من قبله. وبرأي نيتشه، الإرشاد كي يصبح الإنسان سعيداً غير ضروري لمن عنده غرائز صحيحة أو سليمة، فهذا يعرف من طبيعته، ماذا عليه أن يفعل: وهذا أفضل من

(1) Human, All _ too _ human, Portable Neitzsche, Kaufmann, 271.
(2) Götzen _ Dämmerung, Die Bier Großen Irretümer, 2.

أن يعرف ذلك من أيّ أمر أو إرشاد. بل ثمة ما هو أكثر، فكل أمر أو إرشاد هو عبارة عن مرض أو عوز للغريزة، إن بالنسبة للأفراد أو الشعوب.

تنتمي الغريزة السليمة إلى الإنسان السليم، كما ينتمي إليه الجسم السليم أيضاً. وبراي نيتشه: «لكل فرد نظامه الصحي الخاص»[1].

2 ـ خطأ السببية المزيفة:

يعتقد الإنسان أن كلّ فعل مُسَبّب من «إرادة» أو «تفكير» أو «أنا» ـ يُسمّي نيتشه هذه الظواهر الثلاث «بالحقائق الداخلية». وتنتمي كلّ «الحقائق الداخلية» إلى العالم الفكري ـ بتعبير ديكارت: «rs cogistans» ـ الذي يقابله العالم المادّي ـ «العالم الخارجي rs extensa» ـ وليس هنالك أدنى علاقة بين هذين العالمين: بعكس رأي ديكارت. وكل ما نفعله في هذه الدنيا ينتمي إلى العالم المادّي؛ وإننا نعمل بفضل دوافع وحوافز.

لكن الحقيقة هي أن الفعل يأتي أولاً، ثم يحاول الإنسان بعد ذلك إقناع نفسه أنّه هو الذي أراد هذا الفعل. بتعبير آخر: الفعل دون غاية أو معنى غير مفهوم بالنسبة لنا؛ والحقيقة الخالية من المعنى تجعلنا نخاف من الدنيا ونتحيّر فيها، لذلك نحتاج إلى العقل مفسّراً، ليجد لنا في العالم معنى وغاية. وهكذا اخترع عقلنا الإرادة المُسبّبة لكل فعل، كي تشرح لنا ما هو في الواقع دون بواعث ولا غاية ولا معنى؛ واخترع عقلنا العالم الفكري rs Cogitans كي يُلْبس العالم المادّي المجرّد ثوب العار. لكن كما الملابس مُخاطة حسب الجسم وليس العكس، وكذلك فالعالم الفكري يعتمد أساساً على العالم المادي، وليس العكس.

الفعل أوّلاً: ثم يأتي بعد ذلك تفسيره من قبل «العقل» ونسب بواعثه إليه.

---

(1) Ebda.

و«الإله» أيضاً ينتمي إلى العالم الفكري تماماً باعتباره العقل الأوّل. «وماذا يتبع هذا؟ ليس هنالك علل روحانية إطلاقاً! وكل التجريبية المزعومة التي سائدتها ذهبت إلى الشيطان»[1].

نضيف أخيراً: إن التمييز بين العالم الفكري والعالم المادّي هو نتيجة للتفكير أيضاً.

3 ـ خطأ الأسباب المُتَخيَّلة:

الإنسان بحاجة دائماً إلى تفسير كل ظاهرة: يجب أن يعرف ماهيتها. وربما اهتم أكثر بغاية ـ أو معنى ـ هذه الظاهرة و«بإرادتها». فدون معرفته بذلك، سيشعر الإنسان بضعفه، وسيخاف مما قد يحدث له. و«الذاكرة التي تصبح فعّالة في حالة كهذه دون أن تعي ذلك، تستدعي حالات أبكر من نوعية مشابهة والتفسيرات السببية التي نشأت عنها ـ وليس سببيتها. ودون شك، فالاعتقاد بأن هذه التصوّرات والحوادث المرافقة لها في الوعي هي عِلل، تقدّمه الذاكرة أيضاً. وهكذا ينشأ هنالك تعوّد على تفسير سببي معيّن والذي هو في الحقيقة يعيق، بل يمنع، التحرّي عن السبب»[2].

لتفسير ما سبق، سنضرب الآن المثال التالي:

تخيّل نفسك ليلاً في مكان لا تعرفه جيداً، والظلمة دامسة. سمعتَ أصواتاً مختلفة لا تعرف ماهيتها ولا مصدرها. تحاول تأويل (ـ تفسير ـ) هذه الأصوات، وشرحها لنفسك؛ وإذا فشلت في التعرّف عليها، لأنك لم تسمعها من قبل، عليك مباشرة أن تقارنها بأصوات مألوفة (ـ معروفة ـ) لديك. وإذا ما فعلت ذلك، تستطيع بعدها أن تتخيل أصحاب هذه الأصوات وتشعر من ثم بالألفة والسكينة؛

---

(1) Ebda. 3.
(2) Ebda, 4.

ويختفي الخوف[1] أو يتمّ تحديد مصدره؛ وهو ما يجعلك تفكر في ما عليك فعله لمواجهة الأخطار المحتملة التي تعرّفت عليها عن طريق تحليل الأصوات الذي قمت به.

«تفسير نفسي. ـ إرجاع شيء مجهول إلى شيء معلوم هو مُسَكِّن، مهدّئ، مُرضٍ؛ وأكثر من ذلك فهو يعطي إحساساً بالقوة. فالخطر، الإزعاج، القلق مرافقة للمجهول ـ والغريزة الأولى هي إزالة هذه الحالات المؤلمة.

المبدأ الأوّل: إن أيّ تفسير أفضل من اللاتفسير. ولأنها أساساً قضية رغبة بالتخلّص من تصوّرات مزعجة ليس إلّا، فالمرء لا يهتم تماماً ما الذي يعنيه تعوده على التخلّص منها. والفكرة الأولى التي تقول إن المجهول هو في الحقيقة معلوم تقدّم الكثير من النفع بحيث «يعتبرها المرء حقيقة»: البرهان بالسرور [«بالقوة»] هو معيار الحقيقة»[2].

حين يأتي الإنسان إلى هذه الدنيا يكون في حالة مشابهة تقريباً ـ كواحد في مكان لا يعرفه. إنه بحاجة إلى تفسير الظواهر التي لا يعرفها؛ إلى معرفة غايتها ومعانيها. وهكذا يصبح معتاداً على كل ما يناسبه من تفاسير، خاصة تلك التي تشرح له الظواهر الغريبة بمفاهيم مألوفة عنده، حتى وإن كانت غير صحيحة أو لا تناسب السياق. فالمعنى (ـ الغاية ـ) المتخيّل أفضل من اللامعنى (ـ اللاغاية ـ) في أيّ مجال. وهكذا «فالجديد، غير المُخْتَبر، الغريب، مستبعد عن كونه علّةً. ولا يتمّ بالتالي البحث عن نوعية معيّنة من التفاسير فقط، بل عن نوعية «مختارة» و«مُفَضّلة»، النوعية التي يُلْغى بها شعور الغريب، الجديد، غير المُخْتَبر، بأقصى سرعة وبأكثر ما يُمْكن ـ وهي التفاسير

(1) يمكن أن نلاحظ هنا العلاقة بين «خاف وخفي». فخفي ضد ظهر. والخوف يأتي من كل ما هو غير ظاهر عموماً.

(2) Ebda, 5.

الأكثر شيوعاً ـ والنتيجة: نوع خاص من «لسبب ـ العلّة» يصل إلى رجحان لنفوذ متزايد، ثم يتركّز في نظام ويسيطر أخيراً على كل ما عداه، أي ببساطة يستثني العلل والتفاسير الأخرى»[1].

يُبنى الدين على أساس هذه الحاجة الإنسانية إلى عللٍ لكل شيء. «فعالم الدين بكامله يقع تحت مفهوم العلل التخيلية هذه»[2]. فإذا ما أحسسنا بالتعاسة، فسوف نجد سبباً لذلك الشعور بسهولة: عقوبة على خطأ ارتكبناه. وإذا ما شعرنا بالسعادة، فسوف نستنتج مباشرة أن سبب ذلك يعود إلى ثواب على أفعالنا الخيّرة. فحزن وسعادة دون معنى: أمر مستحيل. «كل هذه التفاسير المفروضة... هي حالات «ناجمة عن شيء» وترجمة للمشاعر السارّة والمزعجة إلى منطق مزيّف: يكون المرء في حالة يستطيع فيها أن يختبر الأمل «لأنّه» أعيدت تقوية الشعور الفيزيولوجي الأساسي والإسهاب به من جديد؛ فالمرء يثق بالله لأن شعور الوفرة والقوة يضفي عليه السكينة. ـ يقع الدين تحت «سيكولوجية الخطأ»: كل حالة مميزة يخلط فيها بين العلّة والمعلول؛ أو الخلط بين الحقيقة أو معلول «اعتُقِد» أنه صحيح؛ أو الخلط بين سببية هذه الحالة وحالة الوعي»[3].

4 ـ خطأ الإرادة الحرّة:

يقول نيتشه في المقطع الثالث من فصل «الأخطاء الأربعة الكبيرة»: «لم تعد الإرادة تحرّك شيئاً، ولم تعد بالتالي تفسّر شيئاً ـ إنها ترافق الحوادث فقط، ويمكن أن تغيب أيضاً»[4]. فالإرادة، في الواقع، تصاحب فقط عمليات أو أفعال تُدار من قبل الغرائز.

---

(1) Ebda, 5.
(2) Ebda. 6.
(3) Ebda, 6.
(4) Götzen – Dämmerung.

لقد اخترع مفهوم الإرادة «الحرّة» لتفسير أفعال لا معنى فيها؛ وبعد ذلك ـ وهو الأهم برأي نيتشه ـ أسيء استخدامه بحيث جُعل الإنسان مسؤولاً عن أفعاله، وبالتالي مُستحقاً العقاب: «اخْتُرِع مبدأ الإرادة بهدف العقاب»[1]. إن مسؤولية الإنسان عن أفعاله مشروطة بإرادة الاتهام. فمن يريد اتهام غيره لا بدّ أن يتأكد من مسؤولية هذا «الغير» عن أفعاله. ولم يكن هذا ممكناً إلّا بافتراض أنّ لكل شخص إرادة حرّة؛ وأنه يعمل وفق إرادته الحرّة وحسب ما يبدو له معقولاً أو سليماً. وهذه الفكرة، كما أشرنا، «مبتكرة» لإثبات إثم الإنسان وضرورة معاقبته. وقد كانت هذه الفكرة دائماً وسيلة رجال الدين عموماً لحكم المجتمع والسيطرة عليه: «إن كل علم النفس القديم، علم نفس الإرادة، لديه، كشرط مسبق، رغبة مؤلّفيه، أي الكهنة الذين كانوا على رأس الجماعات القديمة، في خلق «حق» لأنفسهم يستطيعون أن يعاقبوا بواسطته ـ أو رغبتهم بخلق حق لله في فعل ذلك»[2]. فإن من لديه الحق بتثمين أفعال الآخرين والحكم عليها باسم الإله أو بأيّ اسم مقدّس آخر، لديه القدرة على إدارة الناس والتسلّط عليهم: فكرة حرية الإرادة، هي تعبير عن فكرة إرادة السلطة.

ليس هنالك عند الإنسان ما يمكن أن تطلق عليه اسم «إثم»: وبالتالي لا حكم عليه ولا حاكم. إنّه في الواقع بريء من كل ما يفعل: فكل أفعاله نتيجة تأثير (نفوذ) الغرائز عليه. لا تسبّب الإرادة شيئاً؛ فكما لا توجد مسؤولية للإنسان عن مولده وطبيعته لأنها نتيجة لمجيئه اللاإرادي إلى الحياة: كذلك أفعاله. «لقد كان المفهوم «إله» المعارض الأكبر للوجود حتى الآن... ونحن ننكر الإله؛ وفي إنكارنا الإله، ننكر المسؤولية: وبذلك الفعل فقط نسترد العالم»[3].

---

(1) Ebda, 7.
(2) Ebda, 7.
(3) Ebda, 8.

مسألة تناقض القيم:

من القضايا الهامة التي أشار إليها نيتشه في أساس تفكير الميتافيزيقيين: مسألة تناقض القيم. فهؤلاء لا يعتقدون أن الحقيقة نشأت من الكذب أو أن الخير نشأ من الشر. فكل ما هو قيمة مطلقة لا يمكن أن ينشأ من العالم النسبي وبهذا التحامل نستطيع تعريف الميتافيزقيين ومن على شاكلتهم لكن يتبع ذلك أنه في «في العالم النسبي لا توجد قيم مطلقة وعلينا بالتالي أن نبحث عنها في عالم آخر». وتلك هي نهاية تحامل تناقض القيم؛ والطريقة التي يتوصّل بها الميتافيزيقيون ورجال الدين إلى «حقيقتهم»، أي عالم ما وراء الطبيعة[1].

ب ـ العقل والحواس:

ثمة خطأ رئيس وقع فيه الفلاسفة، خاصة الميتافيزيقيين، وما زال بعض العلماء [؟!] يقعون فيه حتى الآن: التمسّك بالمطلق أو الثابت الذي يجعلهم يرفضون أهمية الحواس لأنها تقدم للإنسان ما يتغيّر، وما هو غير مثالي. وقد كان هنالك خوف في بلاد الإغريق قديماً من طغيان دور الحواس. فخلق لهم سقراط طاغية آخر، هو العقل، لن يكون معه «خطر صغير لشيء آخر يلعب دور الطاغية»[2]. لكن الفكر الإغريقي لم يكن حرّاً في رمي ذاته على العقلانية: «كان واحدهم محفوفاً بالمخاطر، وليس أمامه سوى خيار وحيد: إمّا أن يهلك ـ أو أن يكون عقلانيّاً بشكل غير معقول»[3]؛ فكل «استسلام للغرائز، اللاوعي، يقود نزولاً»[4]. لكن سقراط كان مخطئاً تماماً في هذا. «إنه خداع ذاتي من قبل الفلاسفة والأخلاقيين إذ تصوّروا أنهم بإعلانهم الحرب على التفسّخ، يتملصون

(1) Ebda, 8.

(2) Götzen _ Dāmmerung, Das Problem des Socrates.

(3) Götzen _ Dāmmerung, Das Problem des Socrates.

(4) Götzen _ Dāmmerung, Das Problem des Socrates.

هم أنفسهم، من التفسّخ. فما اختاروه كوسيلة، كإنقاذ، [العقلانية بأيّ ثمن] هو شكل آخر للتفسّخ ليس إلا... [لأنه] حين يتوجّب على المرء قتال غرائزه فذلك صيغة للتفسّخ: فما دامت الحياة متصاعدة، فالسعادة والغريزة شيء واحد»[1].

الحواس، برأي نيتشه، لا تكذب أبداً. والعقل هو سبب تزييفنا لدليل الحواس. وبقدر ما تُظهِر الحواس صيرورة، تبدّلاً، زوالاً، لا تكون كاذبة. هذا يعني أن «العالم الظاهري هو العالم الوحيد: والعالم الحقيقي مجرّد إضافة كاذبة»[2]. إن دليل الحواس وحده الهام: والباقي«سقط ولم يعد علماً: إنه ماورائيات، لاهوت، علم نفس، وإبستمولوجيا»[3].

يرفض نيتشه واحداً من أهم أسلحة سقراط العقلانية: الديالكتيك. فبرأيه «مع سقراط اجتاز الذوق الإغريقي تبدلاً لمصلحة الديالكتيك»[4]. ـ لكن: هل الديالكتيك وسيلة لإثبات الحقيقة؟ لقد فضّل الفلاسفة الميتافيزيقيون ورجال الدين استخدام الديالكتيك للبرهان عن آرائهم في مواضيعهم المقدّسة أو الماورائية؛ وما زالوا يفضّلون ذلك حتى الآن. ـ لكن: ما هو الديالكتيك أساساً، ما هي غاياته، ومن يستخدمه؟

كان سقراط واحداً من عامّة الشعب؛ وكان وجهه وشكله الخارجي بشعين إلى درجة غير معقولة. وعند عامّة الشعب، منظر الإنسان وشكله الخارجي مهمّان لفهم «روحه»: كان سقراط رعاعة. من هنا كانت حاجته إلى الديالكتيك. فالميل إليه دليل على فقدان القوة؛ فمن لا يملك القوة لتحقيق أهدافه، يجب أن يبحث عن طريقة أخرى. «وحيث تظلّ القوة جزءاً من عرف عام ولا «يقدّم

(1) Ebda, 11.

(2) Ebda, Die «Bernunft» in der Philosophie, 2.

(3) Ebda, 4.

(4) Ebda, Das Problems des Sokrates.

المرء حججاً» بل أوامر، يكون الديالكتيكي أحد أنواع المهرّجين: كان سقراط مهرّجاً أراد أن يُعامل بجديّة»[1]. وكان الديالكتيك الوسيلة التي أراد بها سقراط إقناع الأقوياء بأهدافه. ومن يحتاج إلى وسيلة كهذه لا يكون أبداً من الطبقة النبيلة بل من الرعاع. ـ فما الذي حدث بعد ذلك؟ «إنه قبل كل شيء هزيمة الذوق النبيل؛ فبالديالكتيك وصل الرعاع إلى القمة»[2].

بعد سقراط، جاء أفلاطون، ليقول عن «سلاح الخندق الأخير» هذا، «الموحي بالريبة»: «إن الديالكتيك هو الطريقة الوحيدة للوصول إلى الذوات الإلهية وإلى ما وراء ستار المظهر»[3]. ومن الواضح هنا، أن ديناً يركّز جلّ اهتمامه على الرعاع؛ ويريد أن يجعل كل إنسان مماثلاً للآخر أمام القاضي الأعلى أو الإله، لا بدّ أن يستخدم وسيلة «رعاعية» حتى تفهمه عامّة الشعب. كذلك فإن غالبية رجال دين كهذا، ينتمون أصلاً إلى هذه الطبقة، وهم بالتالي يفهمونها جيداً.

من ناحية أخرى، فإذا كان الديالكتيك ينتمي إلى «الفن الشعبي» فهذا يعني أنه غير عادل. فالعدل غير ممكن إلّا لمن عنده إمكانية العدل؛ لمن حياته أو مستوى معيشته لا ترتبط بعدله: وحده الضعيف يهتم بفائدته إلى أقصى حدّ. «كديالكتيكي يكون المرء تحت سيطرة أداة حقيرة؛ يستطيع بمساعدتها لعب دور الطاغية؛ فإذا ما ربح، فهو يفضح من ربحه بكونه معتوهاً. ويترك الديالكتيكي لخصمه مهمّة البرهان عن أنه ليس معتوهاً: إنه يُغْضِب ويُسبّب العجز في الوقت ذاته. الديالكتيكي يجرّد عقل خصمه من حيويته»[4].

لكن: إلامَ يريد هؤلاء الديكالكتيكيون إيصالنا؟ ماذا يقبع خلف أهوائهم

---

(1) Ebda, 5.

(2) Ebda, 6.

(3) Morgenröte, 474.

(4) Götzen _ Dāmmerung, Das Problem des Socrates

واحدة الآن؟ يجب [illegible] [illegible] [illegible] عالم لأن أهواء البشرية كلها أهواء «الأخير» حتى الآن؟ وكل [illegible] [illegible] [illegible] «اللاشيء»[1].

جـ ـ خطأ الأخير أولاً

يقول نيتشه، إنّ من أخطر ميزات الفلاسفة، خلطهم الأوّل بالأخير. «فهم يضعون ذلك الذي يأتي في النهاية، في البداية، كبداية».

لقد توصّل الفلاسفة إلى خلق «مفاهيم رفيعة»، صارت بمرور الزمن «الأكثر شيوعاً والأكثر فراغاً». ورأوا، من وجهة نظر أخلاقية أنها يجب أن تكون «علّة في ذاتها»، لأنّها من المرتبة الأولى. فالبحث عن أصل لها اعتراض عليها، وإلقاء لظل الشك على قيمتها. لقد وضعت هذه المفاهيم «فوق»، كعلّة في ذاتها، غير خاضعة لمنطق الصيرورة، أيضاً، حتى لا تتنافر، أو لا تتناسق، مع بعضها. وفي النهاية أحرزوا مفهومهم الأغبى «إله»، كعلّة العلل في ذواتها: «الأخير، الأوهى، والأكثر فراغاً». وجرى وضع هذا المفهوم «في البداية كعلّة في ذاته، وكأكثر الكينونات واقعية... وهكذا كان على الجنس البشري أن يتعامل بجديّة مع الخيالات المجنونة لغزّال بيت العنكبوت المريض! ـ ودفع غالياً ثمن فعلته هذه»[2].

ما هي الحقيقة؟

يقول نيتشه في إشارة منه إلى الفرق بين الحقيقة وما نعتقد أنه «حقيقة»: «هنالك أوثان في هذا العالم أكثر ممّا هنالك حقائق فعلية»[3]. ـ فأين نجد هذه الأوثان، وكيف يفسّرها أصحابها على أنها حقائق؟

---

(1) Morgenröte, 474.

(2) Götzen _ Dāmmerung, Die «Verunft» in der Philosophie, 4.

(3) Götzen _ Dāmmerung, Berwort.

في الفلسفة أولاً: فكل الفلاسفة «يتظاهرون بأنهم اكتشفوا آراءهم عن طريق تطوير جدل بارد نقي وإلهي غير مكترث»[1]. ـ لكن: أين الحقيقة في هذا التظاهر؟ الحقيقة أن ثمّة وحياً يستشيرونه، أمنيات تسبق قراراتهم، التي يدافعون عنها لأسباب بعينها: «إنّهم في أكثر الأحيان شفعاء تحيّزاتهم التي يسمونها «حقائق»»[2]. هنا بالذات، يلحّ سؤال على طرح ذاته: هل إنّ الغريزة نحو المعرفة هي منشأ الفلاسفة؟ يجيب نيتشه، ببساطة: «لا أصدّق» ذلك؛ ويكمل: «إنّ من يراقب غرائز الإنسان يرى إلى أيّ حدٍّ تلاعبت بها عوامل موحيه، وسيجد أنها كلّها قد فَلْسِفَت»[3]. وينتهي أخيراً إلى تعريف الفلسفة، بأنّها «هذا الميل الغريزي الطاغي، إرادة السلطة الأكثر روحانية»[4].

في العلوم ثانياً: فهذه العلوم التي تبدو للوهلة الأولى محايدة، موضوعية، تضع نصب عينيها مهمة البحث عن الحقائق ـ فهل هي كذلك فعلاً؟ يجيب نيتشه أيضاً، أن من يقتفي آثار أيّ علم، سيجد أنه في البداية الأولى له جاءت «الافتراضات المتسرّعة، الاختلافات، الإرادة الغيبيّة الخيّرة للإيمان، والنقص في الصبر وعدم الثقة»[5].

ثالثاً: «يشترك الحكم الديني مع الحكم الأخلاقي في الإيمان بحقائق غير موجودة. فالأخلاقية هي مجرّد تفسير لظاهرة معيّنة، أو بدقةٍ أكثر، إساءة تفسير لها. وينتمي الحكم الأخلاقي، كالحكم الديني، إلى مستوى يُفْتَقد فيه حتى المفهوم «الواقعي»، والتمييز بين الواقعي والمُتَخيّل: وهكذا إلى

(1) Jenseits von Gut und Böse, 5.
(2) Ebda.
(3) Ebda, 6.
(4) Ebda, 9.
(5) Ebda, 192.

مرحلة لم تكن الحقيقة هي سوى: تهدأ ... على ذلك الأمور التي ندعوها اليوم خيالات»[1].

يرفض نيتشه بحسم أن تكون الحقيقة أكثر من الظاهر. ويعتبر أن تقديراً كهذا ناشئ عن «تحيّز أخلاقي» ليس إلا. وهنالك أسباب كثيرة تُظهرنا على نحو بوجود مبدأ تزييف في طبيعة الأشياء. ويبحث نيتشه عن مُتَنفَّس يلقي على كاهله تبعة الخطأ، فلا يجد سوى تفكيرنا ذاته، «العقل»[2].

يظل السؤال: ما هي الحقيقة؟

يقول نيتشه: «الحقيقة ليست شخصاً ساذجاً فظّاً بحاجة إلى من يدافع عن حقوقه»[3].

ـ وهؤلاء الذين يقولون إنهم يدافعون عن الحقيقة؟!

يجيب نيتشه باستهزاء: «الإله قدير وهو يعرف الحقيقة ولكنه لا يقدر أن يعلّم الإنسان ما هي الحقيقة»![4]

هذا يعني أن ما من أحد يستطيع أن يعرف الحقيقة: لا الإله ولا الإنسان. ـ وقيم الإله وحقائقه؟

ببساطة شديدة: «التعوّد ليس برهاناً على الحقيقة»[5]. ونحن اعتدنا أننا لا نستطيع تحمّل الحياة إذا لم تكن فيها قيم وحقائق. لذلك يجب أن يكون الإله وقيمه وحقائقه: وتلك عادة ليس إلا.

---

(1) Götzen ـ Dämmerung, Die «Verbesserer» der Menschheit, 1.

(2) Vgl. Jeneseits von Gut und Böse, 34.

(3) Ebda, 25.

(4) Morgenröte, 9.

(5) Ebda, 90.

في ميتافيزيق «الإله»:

لا بدّ أن نشير باختصار هنا إلى مفهوم «الإله» في الميتافيزيق، تجنّباً لأيّ التباس أو سوء فهم. «الإله» هو أعظم موضوع في الميتافيزيق؛ إنه النقطة المحورية فيه كله؛ النقطة الثابتة الوحيدة فيه. لكن إله الميتافيزيقيين لا يماثل إله الأديان «السماوية» ـ الله الرحمن الرحيم. فالميتافيزيقيون يعنون بكلمة «إله» الواجبَ الوجود أو المحرّك الأوّل؛ المطلق الذي يفيض منه كل شيء إلى الوجود، وربما يعود إليه بعد الوجود ـ لكنه ليس حاكم (أو قاضي) النفوس بعد الموت؛ أو المخلّص من الخطايا والآثام؛ أو صانع المعجزات. ونحن، في هذا البحث، ركّزنا اهتماماتنا على «الإله» بالمعنى الأوّل، الميتافيزيقي.

يقول الميتافيزيقيون إنّ كل شيء في إلههم بسيط، حتى تفسيره ـ لأنّه مطلق. إذ ليس له خلاف أو نقيض أو ضد. إنه الأعظم، الأفضل، الأكبر. لذلك يحبّه هؤلاء الميتافيزيقيون. لكن إذا نظرنا إلى هذه الدنيا المخلوقة، فسوف نكتشف فيها مشاكل كثيرة يصعب (ـ أو يستحيل ـ) حلّها؛ مثلاً: كيف يمكن لأفضل خالق أن يخلق أشياء غير كاملة أو ناقصة؟ الجواب سهل: لو خلق الله كل شيء بشكل كامل، مُتَمّم، لكان عليه أن يخلقه مثله تماماً لأنه الكامل الوحيد؛ وهكذا كان عليه عندما بدأ عمله أن يخلق كل شيء ناقصاً حتى لا يوجد إلهان أو أكثر [تخيل مثلاً تعبير «الله أكثر» بدلاً من «الله أكبر»]؛ إذن فقدرة الإله محدودة بالمنطق، بمعنى أنه من غير الممكن منطقيّاً للإله أن يخلق سوى الأسوأ منه، والأقل كمالاً. وإذا ما اخترنا الإله كمبدأ لنا في تفسير العالم وظواهره، فلن تكون تلك مشكلتنا الوحيدة. فنيتشه، يقول: «إله عليم قدير لكنه لا يبالي بأن تفهم مخلوقاته غايته ـ هل يجب أن يكون إله خير؟... لكن ربما أنه إله خير ـ إنما فقط لم يستطع التعبير عن نفسه بوضوح أكثر! وهكذا فربما افتقد لأجل ذلك التعبير أو البلاغة! هذا الأسوأ!

لأنه ربّما عندئذٍ أخطأ فيما يدعوه «حقيقة»، وأنه هو ذاته ليس بعيداً عن «الشيطان المُضَلِّل المسكين»!»[1].

ماذا تفيد المعرفة في الإله من أجل تفسير الظواهر التي تقدّمها لنا الحياة؟ وإذا ما عرفنا أن الإله هو الذي خلق هذه الدنيا (ـ والآخرة!)، وأن كل شيء يحدث وفق إرادته: ماذا يفيدنا ذلك في حل تلك التناقضات المنطقية التي ترمينا بها ظواهر الحياة؟ مثلاً: إذا أردنا أن نعرف لماذا تحدث الزلازل، لاستطعنا أن نصل إلى الاستنتاج التالي: توجد الزلازل في هذا المكان (مثلاً: مصر[2] أو اليابان) لأن الله يريد ذلك، فهو غاضب على الناس في هذا المكان. وإذا ما سألنا: من أين نعرف أن الإله غاضب؟ لكان الجواب سهلاً أيضاً: من الزلازل ـ «ألا ترى الزلازل هناك»؟! إذن ماذا تفيدنا معرفة أن الإله هو الحقيقة وأن كل شيء يحدث وفق مخططه للعالم؟ نعرف على الأقل ماذا علينا أن نفعل ضد الزلازل: نصلّي أكثر أو نعيش حياة أكثر أخلاقية حتى لا نجعل الإله يغضب من جديد. ـ على ذلك كلّه، يعلّق نيتشه: «شرقي للغاية ـ كيف؟ إله يحب الناس شريطة أن يؤمنوا به، ويلقي بنظرات وتهديدات مريعة على من لا يؤمن بهذا الحب!... كم هو شرقي هذا كلّه!»[3]. فهل قدر الشرق أن يتميّز بهذا النوع من التفكير، أو بدقة أكثر اللاتفكير؟

---

(1) Ebda, 91.

(2) نلاحِظ بالمناسبة أن رجال الدين في مصر، وغالبيتهم المطلقة من المتطرفين الذين يغلّفون تزمتهم وانغلاقهم الحضاري بقوة علم كاذبة، استغلوا زلزال مصر 1993 أسوأ استغلال لرفع وتيرة الهيجان عند القطعان الهائجة أصلاً! وراحوا يزعمون، دون أدنى دليل منطقي، أن الزلزال جاء نتيجة بعد الشعب المصري عن الدين، وهو في غالبيته الساحقة «جداً» من المؤمنين. لكن رجال الدين هؤلاء، لم يفسروا «رضاء الله عن الشعوب الملحدة عموماً، كالسويد وسويسرا واليابان، التي تعيش حالة بحبوحة يحسدهم عليها كل المؤمنين.

(3) Die fröhliche Wissenschaft, 141.

ملخص نيتشوي للميتافيزيق:

في كتابه الشهير، «شفق الأوثان»، يقدّم نيتشه مقطعاً مركّزاً يشتمل على ملخص دقيق، عبر أربع فرضيات، لموقفه من الميتافيزيق بشكل عام:

الفرضية الأولى: إن الأرضية التي تمّ عليها تعيين «هذا» العالم كظاهر تؤكد على الأرجح واقعه الحقيقي ـ وأيّ نوعٍ آخر من الواقع الحقيقي هو غير مفهوم إطلاقاً.

الفرضية الثانية: إن السمات المنسوبة إلى «الكينونة الحقيقية» للأشياء هي سمات للاكينونة، أو للعدم ـ «فالعالم الحقيقي» أُنْشِئ من التناقض مع العالم الفعلي.

الفرضية الثالثة: الحديث عن عالم «آخر» غير هذا العالم تافه، شريطة أن تكون غريزة الافتراء على الحياة وشتمها وذمّها غير قوية فينا: ففي الحالة الأخيرة نثأر من الحياة عن طريق أشباح حياة أخرى، أفضل منها.

الفرضية الرابعة: إن تقسيم العالم إلى «حقيقي» وظاهري هو مجرّد إيحاء بالتفسّخ ـ عارض لحياة منهارة[1].

والحل؟

يقول نيتشه في كتابه، «بمعزل عن الخير والشر»: «إن الورع (الحياة في الله) يبدو وكأنه وليد خيال الأرَق الأخير للخوف من الحقيقة». فإذا كان الورع وليد «خيال الخوف من الحقيقة»؛ فكيف يمكن أن نصل إذن إلى تلك الحقيقة المنشودة؟

لا يهتم نيتشه كثيراً بمسألة حقائق الميتافيزيقيين ـ ومن على شاكلتهم ـ المطلقة؛ بل يركّز جلّ اهتماماته على دك أسس الحقائق المزعومة، وفتح الطريق

(1) Götzen - Dämmerung, Die «Vernunft» in der Philosophie, 6.

«للبحث» عن حقائق «فعلية جديدة» ـ لكن هذه المرة، عبر العلوم الدقيقة: «ما هي الحقيقة؟ لا تحتوي العلوم الدقيقة الله. ـ لكن: هل الله هو الحقيقة»[1].
لقد كانت لنيتشه اليد الطولى في تراجع الاهتمام بالتأمّل الميتافيزيقي، والتركيز على العلوم الدقيقة ـ بحيث إن «فلسفة العلم» تحتل حيّزاً كبيراً الآن من الساحة الفلسفية في الدول المتقدّمة.

لقد طلب نيتشه أوّلاً، من أجل تطوير العلوم، أن يتمّ الفصل بين العلم والدين: «حقّاً، إن الناس الذين يفهمون حتى العلم بشكل ديني، كبحث عن المعنى الديني فقط، هم مثل الصم البكم الذين لا يفهمون معنى الموسيقى حتى تشكّل لهم حركة مرئية»[2]؛ فالغوغاء تعوّدوا خطأ على الخلط بين «الفيلسوف ورجل العلم»[3] ـ خطأ لم يتخلص منه الشرق حتى الآن، حين ما يزال بعضهم يصرّون على تسمية «رجال الدين» ـ وأمثالهم ـ بالعلماء.

تحتلّ الطرائق العلمية دوراً هامّاً في عملية البحث، لا يقل أهمية عن نتائج البحث ذاته. فالروح العلمية تعتمد على «التبصّر في الطريقة: وإذا كانت هذه الطرائق مفقودة فكل نتائج العلم لن تستطيع عندئذٍ أن تمنع نصراً متجدّداً للخرافة والتفاهة»[4].

إن ميزة مجتمعات الغوغاء هي فقدان روح العلم، فواحدهم يقنع في أن يجد فرضية في أيّة مسألة تهمه؛ فيتحمس لها ويتهيج؛ ثم يعتقد أن هذا كافٍ تماماً. فإن يمتلك الإنسان رأياً بالنسبة لهؤلاء، يعني أن يتعصّب لرأي ما، ثم يضغطه في قلبه كقناعة راسخة. أما إذا احتاج شيء إلى تفسير ما، فهو يتهيّج

(1) Morgenröte, 93.
(2) Menschliches, Allzumenschliches, 281.
(3) Henseits von Gut und Böse, 205.
(4) Menschliches, ebda.

للحصول على أول انطباع يأتي إلى رأسه، ويعتبر ذلك تفسيراً. وهذا يؤدي طبعاً إلى أسوأ النتائج. وللتخلص من هذا النوع من التفكير، يقول نيتشه: «على كل واحد أن يدرس علماً واحداً من جذوره على الأقل. وعندئذٍ يعرف معنى الطريقة وأهمية الحذر الأقصى»[1].

في أصل الدين:

ليس تصوّر وجود «عالم آخر» غير عالمنا هذا حاجة بشرية أصلاً، لكنه نتيجة محاولة لتفسير بعض الظواهر ـ تفسير مزيّف ربما. مثله إلى حدّ ما مثل «الانفجار الكبير» الذي هو أنموذج لتفسير انوجاد العالم في الفيزياء اليوم؛ لكننا لا نعرف على وجه الدقة تفاصيل هذا «الانفجار الكبير»، وما إذا كان قد حصل فعلاً أم لا!

تسيطر الأفكار الدينية على الإنسان نتيجة تعوّده على تصوّر وجود عالم آخر. فالديانات ليست مرتبطة بإله دائماً. وديانات معيّنة، كبوذية «نيشرين» في اليابان، ظلّت ديانة، رغم تخلّصها من الإله ـ لكنّها لم تتخلّص من تصوّرات العوالم الأخرى.

يمكن تقديم تفاسير كثيرة لنشوء تصوّرات العوالم الأخرى. فمثلاً: في ديانات مصر القديمة، يحتلّ عالم الموت الحيّز الأكبر في «التفكير غير الدنيوي». ورغم تعددية الآلهة في تلك الديانات، يبدو أن هذا التصور كان يوحدها. لكن تصوّر وجود عالم آخر، على الأرجح، يرجع إلى زمن أقدم من ذلك بكثير: زمن مراحل «اللغة ـ التفكير» الأولى. كان الفشل في تفسير حدث «طبيعي» هو الموت، إضافة إلى عامل نفسي هام جدّاً، خاصة في ذلك الزمن، هو «التعلّق»، تعلّق فرد بفرد آخر، وهو أحد سمات التعبير عن الصنف البشري، هما السبب المباشر على

---

(1) Ebda.

الأرجح لتصوّر وجود عالم آخر. فالإنسان البدائي القديم، وهو يرى فرداً عزيزاً عليه يموت، يحتار من جهته في فهم هذا الحدث «الطبيعي»، خاصة حين يكون هذا الموت «طبيعياً»، وحين يبقى الميت أمامه لفترة ما بحالته «الطبيعية»، ومن جهة أخرى، يحسّ بحاجة «ذاتية» ماسّة للإبقاء على هذا الميت حياً، نتيجة خوفه «على ذاته» في مواجهة ظروف العالم المغرقة في القساوة، آنذاك. الأمر الذي قد يجعل الإنسان الحي، بنوعٍ من الأمل المعزّي ذاتياً، يفكّر في ما إذا يمكن للميت أن يعود إلى الحياة من جديد؛ فيقول معزّياً ذاته: «ربما ذلك نوعٌ من النوم». وهنا أيضاً نجد أنفسنا في مواجهة تفسير لشيء مجهول هو «الموت»، بمفردات من شيء معلوم هو «النوم»، طلباً للسكينة. لكن الميت «يخيّب» أمل الحيّ. وتلعب «خيبة» الأمل القوية هنا دوراً هامّاً للغاية، خاصة حين تترافق برباط شعوري شديد بين الحيّ والميت (ـ رباط، كما أشرنا، مردّه «الخوف» على الذات المجرّدة من الأسلحة الطبيعية كباقي الحيوانات والتي لم يَنمُ تفكيرها إلى درجة تمكّنه من الدفاع عنها، أكثر من «التألم» على الميت ربما؛ والإنسان هو الحيوان الوحيد الفاقد لأسلحته الطبيعية الذي يبدي هذا النوع من الألم في حالة الموت ـ) في خلق أمل يحفّز عليه التفكير بعالم آخر، (ـ وربما العكس ـ)، غير محدّد المعالم تماماً، يمكن للميت فيه أن يعود إلى الحياة، وبالتالي إلى رفاقه الأحياء، أصحاب «هذا الأمل». وربما أن الاعتقاد بهذا العالم الآخر سبق الاعتقاد بوجود آلهة، وبعد ذلك، بوجود إله واحد. (ـ في اليهودية مثلاً، تطور الاعتقاد من إيمان بإله قومي واحد «يهوه»، مع عدم إنكار وجود آلهة أخرى، «إلهوهيم أحريم»، إلى الإيمان بإله كوني واحد، «يهوه» أيضاً ـ). فالحاجة إلى طرف ثالث يبثّ الحياة في الميت، كانت على الأرجح سبب التفكير بآلهة. وقد ساهم عدم فهم معنى «الموت الطبيعي»، في دعم التصوّرات البدئية السابقة. وفي مرحلة لاحقة، خاصة في حضارات الشرق الأوسط القديمة، وهي السبّاقة تاريخياً ـ وربما حتى الآن!ـ

في طرح تلك التصوّرات، كان لسوء فهم الطبيعة أهميته البالغة في تكوين مفهوم «العوالم المتعدّدة». فطبيعة الشرق الأوسط، حيث الحدود واضحة تماماً بين الشتاء والصيف، تُضفي على «الحياة ـ الأرض» موتاً ظاهرياً شتاءً، يتبعه دائماً حياة ظاهرية صيفاً ـ فعل طبيعي يُساء فهمه عبر تفسير عالمي الموت والحياة، والموت والبعث. وقد يساعدنا هذا أيضاً في فهم سبب دفن الموتى في الأرض ـ عالم بداية الانطلاق إلى الحياة الأخرى ـ والاهتمام المبالغ به بهذا الدفن عند تلك الشعوب. ولما كانت تصوّراتنا مرتبطة بلغة قديمة، فنحن أسرى بالتالي لتصوّرات قديمة. ولهذا القدم أهميته أيضاً في «تعويدنا» على تلك التصوّرات. لقد ساهم تطوّر اللغة في تحديد تلك التصوّرات ـ وربما تعقيدها ـ لكنه لم يلغها قط.

كان «نَقل» تلك التصوّرات، من جيل إلى جيل، قوياً وتصاعدي التعقيد أيضاً؛ حتى حُوِّلت في نهاية الأمر إلى «نَقْل»، تقليد؛ ورسخت تماماً. ونحن نعرف جيداً أن الإنسان يثق بالكلام المكتوب أكثر من الشفوي، خاصة إذا اعتُبِر الطريق الأقصر (ـ والأوحد ربما ـ) إلى المعرفة، كون كل «العلماء» يتبنونه.

إن الدفاع عن فرضية تصوّر وجود عالم آخر، يعني ببساطة عدم وجود فرضية أخرى، عند المدافع، أفضل منها؛ لكنه يعني أيضاً: الخوف من الشعور باليأس إذا ما تمّ تدمير الصورة المُتَخيّلة المألوفة الموروثة للعالم. يقول نيتشه في هذا الصدد: «ليست الحاجة الميتافيزيقية مصدر الأديان، بل هي نسل منها. فبالنسبة لسيطرة الأفكار الدينية، يصبح المرء معتاداً على تصوّر عالم آخر «خلف، تحت، فوق» ويشعر في إبادة الوهم الديني بفراغ وافتقار كريهين ـ من هذا الشعور ينمو عالم آخر ثانية لكنه هذه المرّة عالم ميتافيزيقي وليس دينيّاً. إن ما أوصل إلى افتراض [وجود] عالم آخر في عصور أولى، لم يكن دافعاً أو حاجة بل خطأ في تفسير عمليات طبيعية معيّنة، لقد كان ارتباك العقل»[1].

---

(1) Die frohliche Wissenschaft, 151.

بعد تبلور التصوّرات الدينية، جاء دور الميتافيزيقيين، وهم نوع رفيع في عالم التصوّرات الدينية، كي يتولوا إضفاء تلوين عقلاني على بعض المفاهيم الدينية ذات الأبعاد غير المعقولة. وكما أشرنا سابقاً، فالميتافيزيق، كما أسّسه أرسطو، باستثناء كتاب «لامدا λ» من مجموعة كتبه الأربعة عشر التي حملت عنوان «الميتافيزيق»، لا يتحدّث عن الدين: لا يشير كتاب «لامدا» إلّا إلى مفهوم «العلة الأولى Causa Prima». لكن «إله AEΘS» أرسطو لا يشبه إله الأديان الحالية. مع ذلك، فقد استغلّ الميتافيزيقيون ومن على شاكلتهم أرسطو حتى آخر قطرة للدفاع عن معتقداتهم وتصوراتهم الخاصة. وتجلى هذا في الأديان التوحيدية (ـ السماوية ـ) الثلاثة، عند ابن ميمون وتوما الأكويني وابن رشد. بل إن أكثر المعادين للاتجاه الأرسطوي من رجال الدين، كالغزالي مثلاً، استخدموا الطريقة المشائية للردّ عليها. لأنها كانت الشكل العقلاني شبه الوحيد.

مشكلة الوحي:

يلعب الوحي، الذي يعني اعتقاد أحدهم أن أفكاره ليست من ذاته بل من «فوق»، وأنه هو ذاته وسيط فحسب، على اختلاف صوره وأشكاله، الدور الأوّل أحياناً في إقناع الناس «بدين ما»؛ خاصة الأديان التوحيدية (ـ السماوية ـ) الثلاثة. صحيح أن «المسيحية ـ الأورثوذكسية» تعتبر يسوع الأقنوم الثاني في «الإله الواحد الضابط الكلّ»، لكن دور «الوحي ـ الروح القدس»، لم يتوقّف منذ ما قبل ولادة يسوع حتى آخر الكلمات في العهد الجديد ـ وربما إلى أبعد من ذلك، عند بعض الطوائف.

لكن نيتشه يرفض طبعاً مفهوم «الوحي» معتبراً أن كلّ الأفكار ليس لها مصدر سوى دماغ الإنسان. ـ كيف يشعر شخص إذن بأن أفكاره ليست منه، بل من قوّة خارج ضميره؟ يجيب نيتشه عن هذا السؤال الهام بتفسيره الآلية النفسية لعملية «الاستيحاء»، فيقول:

- حتى يشعر شخص ما بأنه موحى له، لا بدّ أن يكون هذا الشخص يعرف مسألة الوحي وإمكانية حدوثها، ويؤمن بذلك. فلا يمكن أن نتوقع من شخص لا يمتلك أدنى معرفة بمسألة ما، أن يتحدّث عنها أو يؤمن بها.

(مثلاً، لا نجد في كتب الديانات التوحيدية المقدسة أيّة إشارة إلى أنبياء الشرق الأقصى ومعجزاتهم، والعكس صحيح نوعاً ما).

- قد يحدث وأن يشعر شخص كهذا بأن فكرة (ـ أو أفكاراً ـ) جديدة توصّل (ـأو أوصِل ـ) إليها رائعة إلى درجة اعتقاده أن هذه الفكرة لا يمكن أن تكون «بنت عقله» ولا بدّ أن مصدرها إلهي.

- تستحوذ هذه الفكرة، التي قد تكون رائعة فعلاً، على كل اهتماماته إلى درجة اعتباره إياها أنّها هامة لحياة الآخرين أيضاً. وتصديق هؤلاء، خاصة في المجتمعات البدائية غير المثقفة، لأفكار كهذه سهل جدّاً، خاصة إذا ترافق ذلك بادّعاء أن مصدرها إلهي. فقول كهذا سيجعل الأفكار أكثر ثباتاً فهي تحمل الآن «ختماً» من الأعالي: ومن ذا الذي يجرؤ على انتقاد ما يقوله العليم الحكيم؟![1]

- ونحن بدورنا نضيف عنصراً هامّاً لم يشر إليه نيتشه، يتعلّق بقوة هذه الأفكار وحتمية انتشارها. فقد يحدث أحياناً أن الجماعات الانتهازية، خاصة الغنية، وهي ترى الانتشار القوي لفكرة جديدة، «تظهر» اعتناقها لهذه الفكرة وتصديقها بها؛ لا لشيء إلّا لشعور تلك الجماعات أن هذه الفكرة منتصرة لا محالة، والواجب المصلحي يقتضي بالتالي إظهار تبنيها وحمل الناس على ذلك التبني لاستخدامها، ضمن أشياء أخرى، في خدمة تلك

(1) Vgl. Morgenröte, 62.

الجماعات. ونضرب مثالاً على ذلك إظهار الأمويين عموماً الإيمان بالإسلام.

لكن، ألا يحق لنا التساؤل: كيف أمكن لتلك الأفكار «الموحاة» أن تنتشر بهذه الكثافة والشدة والامتداد؟

نجيب: لقد ظهرت هذه الأفكار أصلاً في مجتمعات غير مثقفة عموماً؛ وكانت الطبقات الأرستقراطية بشكل خاص المعارض الأقوى لتلك الأفكار. لهذا كان أوائل المؤمنين بها، أولئك الناس المعذبين المداسين «الذين يضع الدين وأهمية الحياة الدينية عليهم سطوع الشمس»[1]، و«يعطيهم الدين قناعة لا تقدر بثمن»[2]. إن هؤلاء الذين يشكّلون ـ للأسف!!! ـ الغالبية الساحقة، متدربون «على الطاعة في الشكل الأفضل وللمدة الأطول»[3]، «وليسوا موجودين إلاّ للخدمة والمنفعة العامة»[4]؛ عقولهم منفعلة، وحبهم للبطالة الفكرية والبدنية[5]، التي تبدو أحياناً سمة للحياة الدينية، ليس له حدود. لذلك، يخلص نيتشه إلى نتيجة تقول، إن الأديان الموجودة، خفضت من السوية البشرية[6]. لكن نيتشه، رغم كل ما سبق، لا يرفض الأديان كأديان، بل يرفض أن تكون الأديان أغراضاً في ذواتها: «مرعب حينما تسود أديان بعينها لا كوسيلة للتربية في يد الفيلسوف، بل من ذواتها ومستقلةً؛ أي حينما تريد أن تكون الأهداف النهائية، وليس فقط وسائل إلى جانب وسائل أخرى»[7].

---

(1) Jenseits von Gut und Böse, 61.
(2) Jenseits von Gut und Böse, 61.
(3) Ebda, 199.
(4) Ebda, 61.
(5) Ebda, 58.
(6) Ebda, 62.
(7) Ebda, 62.

الأديان في المنظور النيتشوي

1 ـ المسيحية:

الهجوم اللاذع على المسيحية، ديانة وأشخاص وتاريخ وعقائد وأخلاق، إلى درجة متطرِّفة أحياناً، هو الموضوع المحوري في سائر أعمال نيتشه تقريباً. ولما كانت «المسيحية» العمود الفقري لنقديته الدينية، فسوف نتوقف مطوّلاً عندها في هذا الفصل، مقسّمين المسألة إلى مواضيع فرعية، توخّياً للتبسيط:

يسوع المسيح:

بعكس آرائه بالمسيحية ككل، فإن موقف نيتشه من يسوع المسيح لم يتميّز بالسلبية المطلقة. ومن ذلك قوله: «إن تاريخ المسيحية ـ وذلك منذ الموت على الصليب بالذات ـ هو تاريخ سوء فهم تصاعدي لرمزية أصيلة. فمع كل امتداد للمسيحية إلى مسافات أبعد، وجماهير أكثر خاصية، كان ضرورياً أكثر فأكثر إفساد المسيحية وبربريتها»[1]؛ وقوله: «كان هنالك مسيحي أوحد، وقد مات على الصليب. وما دعي بشارة منذ تلك اللحظة وما بعد كان عكس ما عاشه: أخبار سيئة، ملاك مريض. إنه زائف إلى درجة اللامعقول حين نرى في اعتقاد ما الصفة المميّزة للمسيحي: فالتجربة المسيحية، حياة كتلك التي عاشها الذي مات على الصليب، هي المسيحية... ومسيحية حقيقية... سوف تكون ممكنة دائماً: ليس كاعتقاد بل كعمل... لم يكن ثمة مسيحيون البتة، فالمسيحي، على مدى ألفي عام، ليس سوى سوء فهم نفسي للذات»[2].

---

(1) Der Antichrist, 37.

(2) Ebda, 39.

إذن إذا كانت المسيحية، برأي نيتشه، «تعاكس» تماماً اختبار يسوع الحياتي.

ـ فكيف ينظر نيتشه إلى المسيح؟

لا بدّ لنا من الإشارة أولاً إلى الصعوبات التي تعترض، برأيه، كل من يحاول دراسة الأناجيل، «فاستخلاص حتى تاريخ نفس من الأناجيل يبدو لي دلائل طيش نفسي لعين. فكتب قليلة تقدّم تلك الصعوبات التي تقدّمها الأناجيل. وقصص الأنبياء هي أكثر أنواع الأدب غموضاً في الوجود: فاستخدامها في إجراءات علمية حين لا توجد وثائق أخرى يبدو لي خطأً مبدئيّاً»[1].

لذلك، فأنموذج الفادي، كما تقدّمه لنا الأناجيل، «حُفظ بشكل مشوّه جدّاً»، والتشوّه، برأيه، مرجّح هنا للغاية. وهنالك سببان لهذا الترجيح: الوسط الذي ترك علامته على الأنموذج، والتاريخ أيضاً. كذلك يمكن فهم التشويه، على أرضية الصراعات وأهداف الدعاية.

إن الأناجيل تقدّم لنا عالماً غريباً ومريضاً: فهي ممتلئة برفض المجتمع، الحماقة العصبية، والسخف ـ وهو ما أدّى إلى تخشين الأنموذج. فقد كان على أتباعه الأوائل ترجمة كينونة مغموسة كليّاً في الرموز والمبهمات إلى خاصيتهم الخاصة، فلا يمكن لهذا الأنموذج أن يوجد بالنسبة لهم إذا لم يختزلوه إلى أشكال أكثر مألوفية: النّسبي، المسّيا، الديّان الآتي، الواعظ الأخلاقي، صانع المعجزات، يوحنّا المعمدان ـ وهذه كلها فرص عديدة لإساءة فهم الأنموذج. ثم جاء التوقير الطائفي المتطرّف ليقضي نهائيّاً على سمات الأنموذج وميزاته الأصلية. أما الأنموذج الحالي الذي بين أيدينا، كأنموذج متفسّخ، فهو مزيج من التعددية والتناقضية بشكل خاص[2].

(1) Ebda, 28 - 29.

(2) Vgl. Ebda, 31.

يرفض نيتشه كل ما تعلّمه المسيحية عن الصلب، الحدث المركزي، وأبعاده الرمزية؛ فالمسيح، برأيه، مات «كما عاش، كما علّم ـ ليس ليقتدي به الجنس البشري، بل ليبرهن كيف يجب أن يعيش الإنسان. إن ما أورثه للجنس البشري في اختباره الحياتي هو: تحمّله أمام القضاة، تحمّله على الصليب. فهو لا يقاوم، لا يتّخذ خطوة يتفادى بها أسوأ ما قد يحدث له ـ بل يحرّض عليه»[1]. مع ذلك فنيتشه يرى أن من يضحّي بنفسه في سبيل الله أو في سبيل إنسان غيره، إنما يشعر بأنّه واحد مع الله أو مع الإنسان الآخر؛ وهذا الشعور يجعله يحس بأنه إله أو إنسان هام. قد تبدو التضحية تضحية فحسب، لكنها وسيلة للتحوّل إلى إله، فكرياً على الأقل[2].

لكن الأتباع، برأيه، لم يكونوا يرغبون سوى مصالحهم الشخصية، فبنوا «الكنيسة من معارضة البشارة»[3]، إلى درجة أنه إذا بحث أحدنا «عن دليلٍ أنّ إلهاً متهكّماً كان يعمل خلف الدراما الكونية العظيمة فلن يجد دعامة صغيرة في علامة الاستفهام الهائلة التي تدعى المسيحية. وإلى درجة أن الجنس البشري قدّس في المفهوم «كنيسة» ما اعتبره محضر الأنباء السعيدة (يسوع) تحته، خلفه»[4]. ـ فكيف حصل ذلك؟

يقول نيتشه، إن مصير يسوع كان مُحدّداً بالموت المعيب، أي الموت على الصليب، والذي كان يُحْتَفظ به للرعاع فقط. لكن هذا شكّل تناقضاً صارخاً، وضع حوارييه أمام لغز حقيقي: «من» كان؟ «ماذا» كان؟ الحواريون محبطون ومهزوزون. كان الشك يملؤهم بأن موتاً كهذا لا بدّ أن يكون دحضاً لعلّتهم. لذلك

(1) Ebda, 35.
(2) Vgl, Morgenröte 215.
(3) Der Antichrist, 36.
(4) Ebda, 36.

وَجَب أن يكون لكل شيء معنى: من قتله؟ اليهودية الحاكمة، طبقتها العليا تحديداً. لذلك شعروا بأنفسهم متمرّدين على النظام الاجتماعي. وفهموا يسوع بالتالي كمتمرّد على النظام الاجتماعي. لكن حتى ذلك الحين، كانت السمة الحربية، هذه السمة السلبية في القول والفعل، معوزة في صورته؛ بل كانت مناقضة لها. لقد فشلت الجماعة الصغيرة الأولى في فهم الشيء الرئيس في تجربة يسوع الحياتية: العنصر الاقتدائي في طريقة موته، التحرّر، والسموّ فوق كلّ غلّ. كان يسوع يرغب في أن يقدّم جهاراً في موته أقوى معيار ودليل على صحة تعاليمه. لكن حوارييه لم يستطيعوا أبداً أن يغفروا موته. فعادت من جديد أحاسيس الثأر، الأكثر بعداً عن يسوع، لتحتلّ واجهة الصورة. ورفضوا أن تنتهي القضية بموته: كانوا بالتالي بحاجة إلى العقاب، إلى يوم الدينونة «وماذا يمكن أن يكون أكثر (لايسوعية) من مفاهيم الجزاء، العقاب، والجلوس في الدينونة يوم القيامة؟».

وهكذا جاء تصوّر أن مملكة الله قادمة لتقيم الحكم على أعدائها، وأسيء بالتالي فهم كل شيء: صارت مملكة الله عندهم وعداً، رغم أن يسوع ذاته كان وجود تلك المملكة وواقعها وتحقُّقها. لم يعد باستطاعة تلك الأنفس تحمّل حق المساواة بأن يكون كل واحد ابناً لله كما علّم يسوع، وتمثّل ثأرهم بتبجيل يسوع بطريقة متطرّفة، عبر فصله عن ذواتهم: تماماً كما كان يفعل اليهود سابقاً، حين يفصلون إلههم عن ذواتهم ويرفعونه إلى الأعالي، للثأر من أعدائهم: الإله الأوحد وابن الإله الأوحد ـ كلاهما نتاج للغلّ[1].

هنا برزت مشكلة جديدة: كيف أمكن لله أن يسمح بذلك؟ ووجد عقل الجماعة المُفْسَد جواباً مباشرة: قدّم الله ابنه قرباناً لمغفرة الخطايا! التضحية برجل بريء من أجل آثام الخطأة: أيّة وثنية شنيعة هذه! لقد ألغى يسوع مفهوم

(1) Vgl. Ebda, 40.

الإثم ذاته، وعاش هذه الوحدة بين الله والإنسان بوصفها أنباءه السعيدة وليس كامتياز خاص. ومنذ ذلك الحين، راحوا يدخلون في أنموذج الفادي مذهب الدينونة والمجيء الثاني، مذهب موته كموت قرباني، مذهب القيامة ومعه مفهوم المباركة بكامله؛ وقذفوا بحقيقة يسوع الوحيدة والكاملة، لمصلحة حالة ما بعد الموت[1].

وهكذا، برأيه، فإن مفهوم السببية الروحانية في المسيحية مزيّف بأكمله. فحين تختزل مسيحيتك، إلى الإمساك بشيء على أنه حقيقي، إلى ظاهرية وعي ليس إلّا، فهذا يعني أنك تنكر «التمسّح»: لم يكن هنالك مسيحيون قط[2]. - وربما لن يكون.

مع ذلك، ثمة خطأ، برأي نيتشه، في المسيح، يتجلّى في اعتقاده «أن الناس لا يعانون من شيء أكثر من معاناتهم من خطاياهم: هذا كان خطأه، خطأ من يشعر بذاته دون خطيئة، والذي لا يملك خبرة في هذا المجال! وهكذا ملأت نفسه ذاتها بالرحمة العظيمة والرائعة، والتي كانت تلبّي حاجة، هي نادراً ما كانت حاجة عظيمة، حتى بين شعبه (اليهود)، الذي اخترع الإثم! لكن المسيحيين عرفوا كيف يجعلون سيّدهم على حق ويقدّسون خطأه «كحقيقة»[3].

يقدّم نيتشه تفسيراً «سيكولوجياً» لرغبة يسوع الملحّة بالموت، يفيد أنه ربما تكمن خلف حكاية يسوع واحدة من أكثر حالات استشهاد معرفة الحب إيلاماً: إنه استشهاد قلب هو الأكثر طهارة، والأكثر طلباً للحب؛ قلب لم يكن حب الناس يكفيه؛ قلب تاق بقسوة وجنون إلى أن يحب ويُحَب. وبانفجار مريع ضد أولئك الذين لم يقدّموا له الحب، اختلق جهنّم، يرسلهم إليها في النهاية؛ وابتدع إلهاً

---

(1) Vgl., ebda, 42.
(2) Vgl., ebda, 39.
(3) Die fröhliche Wissenschaft, 138.

كلّه حب، وكلّه مقدرة على الحب - إله ينظر بعين الرحمة إلى حب الناس لأنه يعلم أن مثل هذا الحب حقير وجاهل للغاية. ومن يشعر بهذه الأحاسيس، لا بدّ له على الأرجح أن يبحث عن الموت[1]. - كي ينجز أمانيه غير المحققة.

الأنموذج الفيزيولوجي للفادي:

يرى نيتشه، أن الأنموذج الفيزيولوجي للفادي محتوًى في الأناجيل رغماً عنه؛ لذلك كان مشوّهاً ومثقّلاً بالسمات الغريبة؛ وقد ساهم التقليد في انحطاطه أيضاً. في السياق ذاته، ينتقد نيتشه بعنف المفهومين اللذين طبّقهما رينان، «مهرّج علوم النفس»، على يسوع: العبقري والبطل. ويقول إنّهما الأصعب تطبيقاً في تلك الحالة. فبالنسبة «للعبقري»، يقول نيتشه إن المفهوم الثقافي «روح» لا يمتلك أيّ معنى في عالم يسوع رينان، ويقترح عوضاً عنه، المفهوم «معتوه». أما «البطل»، كما يقدّمه رينان، فهو أيّ شيء غير ذي علاقة بيسوع.

إن التفسير النفسي لشخص يسوع كما قدّمه نيتشه، يُبْنى عن وضع حساسية مرضية حيال شعور اللّمس، تجعل صاحبها ينكمش برعب عن أيّ احتكاك، وعن الإمساك بأيّ شيء ثابت. وحين يترجم نيتشه هذا الوضع المَرَضي إلى منطق صرف، يقول إنه كراهية غريزية لكل واقع، فرار داخل «اللاممْسك»، كراهية لكل شكل، كل مفهوم للزمان أو المكان، كل ما هو ثابت، كل ما هو عرف؛ حتى يستوطن أخيراً في عالم غير معكّر بأيّ نوع من الحقائق - عالم داخلي مجرّد: عالم أبدي؛ وبلغة المسيحيين: مملكة الله تكون فيكم[2].

من أين جاءت هذه الكراهية الغريزية لكلّ ما هو واقع؟ إنها نتيجة مقدرة قصوى على المعاناة والتهيّج مما يؤدي إلى فقدان الرغبة باللّمس، لأن صاحبها يشعر بكل احتكاك بعمق كبير.

---

(1) Vgl. Jenseits von Gut und Böse, 269.

(2) Vgl. Der Antichrist, 29.

وما هو سبب إقصاء كل مقت وعداوة وكل شعور بالتباعد؟ إنه نتيجة مقدرة قصوى على المعاناة والتهيّج أيضاً، حيث يُشْعر بكل مقاومة على أنها استياء لا يحتمل، وهكذا فالمباركة هي التوقّف عن مقاومة أيّ شخص، والحب هو إمكانية الحياة الحقيقية والوحيدة.

نستخلص مما سبق أن مبدأ الفداء ليس بعيداً عن الأبيقورية: إنه ارتقاء لمبدأ المتعة لكن على أساس مريض تماماً ـ فالخوف من الألم لا يمكن أن ينتهي إلّا بديانة حب[1].

يرى نيتشه، أن أنموذج المسيح، كما قُدّم حتى الآن، مغمور بالقياس المُثْمِر للمرارة، بفضل الوضع المُثار للدعاية المسيحية فقط. فقد كيّف هؤلاء المتعصّبون سيّدهم، وفق حاجاتهم، للدفاع عن أنفسهم. فحين احتاجت الجماعة الأولى إلى لاهوتي لاذع لمعارضة اللاهوتيين الآخرين، لفّقت إلهاً يلبّي احتياجاتها: تماماً كما وضعت في فمه تلك المفاهيم غير المسيحية على الإطلاق، والتي لم تستطع الجماعة العمل دونها: المجيء الثاني، الدينونة الأخيرة، وكل أنواع الوعود والتوقّعات الزمنية[2].

لكن لا شيء أكثر لامسيحية من الخاميات الكهنوتية عن الله كأقنوم، عن مملكة الله الآتية، عن مملكة السماوات في الماوراء، وعن ابن الله، الأقنوم الثاني في الثالوث[3].

يسوع روح حُرّة ـ لا تهتم لأيّ شيء ثابت. فالشكل الوحيد الذي يعرفه للحياة والتجربة والمفهوم، يعارض كل أنواع الكلام والصيغ والقوانين والعقائد. إنّه لا

(1) Vgl, ebda, 30.
(2) Vgl, ebda, 31.
(3) Vgl, ebda, 32.

يتحدث إلّا عن الشيء الأعمق: الحياة أو الحقيقة أو النور هي تعابيره عن هذا الشيء الأعمق.

رمزي كهذا، برأي نيتشه، يقف «دون منازع»، خارج كل الأديان، التاريخ، السياسات، الكتب، الفنون ـ فالمعرفة الخاصّة به تحديداً، هي أنه إذا اعتبر أيّ نوع من الأنواع السابقة موجوداً، فذلك ليس سوى حماقة صافية. إنه لم يسمع بالثقافة، وهو بالتالي لا يحتاج إلى محاربتها ـ ولا إنكارها، والشيء ذاته ينطبق على الدولة، والمجتمع، والنظام المدني؛ على العمل والحرب: لم يكن لديه قط سبب لإنكار العالم، بل لم يكن لديه أدنى انطباع عن المفهوم الكنسي «عالم». فالإنكار هو المستحيل عنده تحديداً ـ الديالكتيك مفقود، الفكرة مفقودة؛ والبرهان على الإيمان يتمّ بالعلل (براهينه أنوار داخلية). في مذهب كهذا الجدل مستحيل، لأنه لا يفهم وجود مذهب آخر، بل لا يعرف كيف يتخيّل رأياً يعاكس رأيه[1].

يقول نيتشه، إن الأخبار السعيدة التي جاء بها يسوع، هي إلغاء الإثم، كل أشكال التباعد بين الله والإنسان. البركة غير الموعودة: إنها الحقيقة الوحيدة. وهو لم يعد يطلب أية جملة للتواصل مع الله، أيّ طقس ـ ليس حتى الصلاة. لم تكن حياة الفادي غير هذا ـ وكذلك موته. يمكن للإنسان أن يعرف عبر تجارب حياته كيف يشعر بالألوهة، المباركة؛ وبأنه ابن الله دائماً. إن ما أنكرته الأخبار السعيدة، برأيه، هو كامل التعاليم الكهنوتية اليهودية ـ أزيلت يهودية المفاهيم «إثم»، «غفران»، «إيمان»، والفداء «بالإيمان»[2].

لكن هذا الرمزي العظيم، إذا كنّا نفهم منه شيئاً، فهو اعتقاده أن الوقائع والحقائق هي الوقائع الداخلية فقط ـ والباقي مجاز. حتى مفهوم ابن الإنسان

(1) Vgl. ebda, 34.
(2) Vgl. ebda, 33.

فهو ليس شخصاً عينياً ينتمي للتاريخ، بل حقيقة خالدة، رمز نفسي متحرر من مفهوم الزمن: والشيء نفسه ينطبق على إله هذا الرمزي الأنموذجي، على مملكة الله، على مملكة السماوات، وعلى أبناء الله.

وهكذا، فالحقيقة النفسية الوحيدة للفداء، هي الغريزة العميقة لكيف يمكن أن يعيش الإنسان بحيث يشعر بأن ذاته في السماء، خالدة، في حين إله في غير هذا الوضع لا يشعر بأنه في السماء إطلاقاً. ـ إنها طريقة حياة جديدة، وليست إيماناً جديداً[1].

أصل المسيحية:

في حديثه عن البداية الأولى للمسيحية، يركّز نيتشه أوّلاً على «أصلها اليهودي». فيسوع المسيح، برأيه، لم يكن ممكناً إلّا «في محيط يهودي». ففي هذا المحيط، يشعرون بإشعاع الشمس، حين يأتي مفاجئاً ونادراً، في طقس مكفهرّ كئيب مليء بالغيوم السوداء، على أنه معجزة «الحب»، إشعاع «الرحمة» التي لا يستحقها أحد أبداً. فهنا فقط، استطاع يسوع أن يحلم بقوس قزحه ويُسلّمه إلى السماء، الذي ينزل عليه إلى الناس. لكن خارج المحيط اليهودي، يعتبر الطقس والشمس أمرين عاديين[2].

إن التربة التي نمت عليها المسيحية، برأيه، ليست حركة معادية للغريزة اليهودية، بل هي فعلاً نتيجتها المنطقية، أبعد خاتمة لمنطقها الموحي بالرعب. كان «دستور» الفادي: «الفداء لليهود». كذلك فالأنموذج النفسي للجليلي سهل استيعابه؛ فقد استطاع في صيغة متفسخة تماماً أن يؤدي الغرض الذي وضع لأجله ـ أنموذج فادي الجنس البشري.

---

(1) Vgl. ebda, 33, 34.

(2) Vgl. Die fröhliche Wissenschaft, 137.

يرى نيتشه أن اليهود أكثر أمة ملفتة للنظر في العالم. فهؤلاء، في مواجهة مسألة «أن تكون أو أن لا تكون»، اختاروا أن يكونوا بأيِّ ثمن. وكان الثمن الذي دفعوه تزييف العالمين الداخلي والخارجي على حدّ سواء، فقد عرّفوا أنفسهم بطريقة تعاكس كل تلك الظروف التي باستطاعة أمة العيش في ظلّها؛ فجعلوا من أنفسهم متناقضين للظروف الطبيعية؛ وعكسوا الدين والعبادة والأخلاق، حتى يعارضوا قيمهم الطبيعية، بطريقة لا تصلح أبداً[1].

على تربة مزيّفة بهذا الشكل، نشأت المسيحية. وهكذا فالحركة الثورية الصغيرة المعمّدة باسم يسوع الناصري هي الغريزة اليهودية من جديد[2]. وإذا ما أردنا أن نفقد الخيط بالكامل: يجب أن نعرف أنّنا، في المسيحية، بين اليهود. فهذا التظاهر بالقداسة، هذا الفن في تزييف الكلمة والموقف، ليسا نتاجاً محظوظاً لإحدى المواهب الفردية أو إحدى الطبائع الاستثنائية، فالعرق، العرق اليهودي، مطلوب هنا. ففي المسيحية، تحرز اليهودية كمالها المطلق. والمسيحي، هو اليهودي من جديد، فالرغبة المبدئية في استخدام مفاهيم ورموز ومواقف تظهر في عرف الكهنة، وترفض غريزياً كل الأعراف الأخرى: هذا إرث[3].

لهذا فاليهود، برأيه أشأم أمّة في تاريخ العالم: فقد زيّف أثرهم اللاحق الجنس البشري إلى درجة أن المسيحي اليوم قادر على الإحساس أنه عدوّ لليهودية دون أن يدرك أنه نتيجتها القصوى[4].

يقول ليتشه، إن الأخلاق اليهودية والأخلاق المسيحية تشتركان في كونهما أخلاق غلّ، تنتج عن إنكار الأخلاق النبيلة. ومن أجل رفض الحركة التصاعدية

---

(1) Vgl. Der Antichrist, 24.
(2) Vgl. ebda, 27.
(3) Vgl., ebda, 44.
(4) Vgl., ebda, 24.

للحياة، كان لا بدّ لغريزة الغل أن تلفق عالماً آخر تظهر فيه الحياة الموثوقة شراً[1]. لذلك فهو يعرّف الأخلاق اليهودية ـ المسيحية. الحظ المسروق منه براءته: البلية الموسّخة بالمفهوم «إثم»: الرفاهية باعتبارها خطراً، إغواءً: التوعّك الفيزيولوجي المُسَمّم بدودة الضمير[2].

لم تستخدم المسيحية الأولى، برأيه، في طقوسها، غير المفاهيم اليهودية ـ الأكل والشرب في المناولة مفهومان يهوديان أساءت الكنيسة استخدامهما بتحويلهما إلى مجازيات[3]. والخطيئة، كما نشعر بها الآن وكما شُعِر بها في أيّ مكان سيطرت عليه المسيحية، هي اختراع يهودي وحسٌّ يهودي. بالنسبة لهذه الأرضية الأخلاقية المسيحية، كان الهدف هو «تهويد» العالم. فالشعور اليهودي وحده الذي يرى أن أهمية الفعل تكمن في آثاره المافوق طبيعية، وأن كل ما هو طبيعي غير وقور في ذاته[4].

يعتبر نيتشه الإله المسيحي «يهودياً جدّاً» فإله يحب الناس، شريطة أن يؤمنوا به، ثم يلقي بنظرات وتهديدات على من لا يؤمن بهذا الحب: حب مرتبط بشرط الإحساس به كإله قدير، وحب لم يستطع أن يصبح سعيداً رغم مشاعر الشرف وحب الانتقام. ـ هذا كله يهودي، شرقي جدّاً[5]. مع ذلك، ثمة فرق بين الإله اليهودي والإله المسيحي: فالأوّل كان إله شعبه فقط؛ في حين صار موطن الثاني في كل مكان. لكن إله الغالبية العظمى، المسيحي، لم يصبح إلهاً وثنياً فخوراً: ظلّ شخصاً يهودياً، إله الأماكن المنعزلة، الزوايا والأمكنة المغلقة. كانت

---

(1) Vgl., ebda.

(2) Vgl., ebda, 25.

(3) Vgl., ebda, 32.

(4) Vgl. Die fröhliche Wissenschaft, 135.

(5) Vgl., ebda, 140.

إمبراطورية عالمه، إمبراطورية هيتو. لم قهره السادة الميتافيزيقيون أصحاب المفاهيم، فصار مثالاً، روحاً صافية، مطلقاً، شيئاً في ذاته[1]. إن إنكار الله هو أن يصبح «شيئاً في ذاته». وهكذا فالمفهوم المسيحي للإله، برأيه، هو واحد من أفسد مفاهيم الإله التي ظهرت على وجه الأرض: بل ربما يمثّل درجة الحضيض في التطوّر الهابط لأنموذج الإله. فقد سقط الإله إلى معارض الحياة، بدل أن يكون تجلياً لها، «نَعَمها» الخالدة. إنه إعلان عدائية ضد الحياة؛ دستور لكل افتراء على هذا العالم، لكل كذبة عن العالم الآخر؛ ففيه يؤلّه العدم، وتقدّس إرادة العدم[2].

وكالإله تماماً، برأيه، كان كل شيء في المسيحية تطويراً للمفاهيم اليهودية. فالمسيحية مثلاً، حين لم تعد تستطيع تحمّل الكاهن اليهودي كواقع فعلي، لفّقت شكل وجود أكثر تجريدية، ورؤية للعالم أكثر لاواقعية من تلك الرؤية المشروطة بكنيسة «يهودية» منظّمة[3]. لقد كانت هذه الثورة، التي فُهِم - أو أسيء فهم - أن مؤسسها هو يسوع، ضد الكنيسة اليهودية. ضد الخير والعدل، ضد الإرث الاجتماعي. لم تكن ثورة على التفسّخ اليهودي، بل على الطبقة المميزة. كانت جحوداً بأرفع الناس. فالإرث الذي رميت حوله الشكوك، كان الأساس الذي استطاعت الأمة اليهودية أن تتواجد عليه في كل الظروف. كانت هجوماً على أعمق الغرائز القومية، بل على أقسى إرادة حياة قومية وجدت يوماً على الأرض[4].

وحين انفغرت الهوة بين اليهود من جهة، واليهود المسيحيين من جهة

(1) Vgl. Der Antichrist, 17.

(2) Vgl., ebda, 18.

(3) Vgl., ebda, 27.

(4) Vgl., ebda.

اخرى، لم يكن أمام الآخرين سوى استخدام، ضد اليهود، إجراءات الحفظ الذاتي التي تنصح بها الغريزة اليهودية؛ في حين لم يستخدمها اليهود سابقاً إلّا ضد كل ما هو غير يهودي. «المسيحي هو يهودي بعقيدة أكثر حرية ليس إلّا»[1].

بولس:

يعتبر نيتشه اليهود أمة أقوى الطاقات الحيوية، الذين حين وضعوا في ظروف صعبة، اختاروا الوقوف، بأعمق أنواع مكر الحفظ الذاتي، إلى جانب كل القيم المتفسّخة. وتنبّؤوا أنهم عبر تلك القيم، يمكنهم أن يسودوا العالم بقوة. «اليهود نسخ عن المتفسّخين»[2].

وهكذا كان اليهود يضعون أنفسهم على رأس كل الحركات المتفسّخة ليجعلوا منها شيئاً أقوى من أوثق أجزاء الحياة. وكان بولس أبرز هؤلاء[3]. لكن نيتشه، في موضع آخر، يقول إن بولس شخص أراد أن يعيش تماماً وفق متطلبات الشريعة اليهودية، ولما فشل في ذلك لصعوبتها، وجد في المسيحية منفذاً للخلاص[4].

عندما ظهر بولس ـ كراهية المنبوذين لروما، للعالم، تصبح لحماً ودماً عبقرية، في بولس اليهودي، اليهودي الخالد بلا منازع ـ كان كل عقلٍ في الإمبراطورية الرومانية أبيقورياً. لكن بولس تنبّأ أنه بمساعدة حركة متعصّبة صغيرة على شفا اليهودية، يمكنه أن يشعل حريقاً عالمياً؛ وأنه برمز الله فوق الصليب، يمكنه أن يلخّص كل ما هو مقدّس، سرّي الثورة، وكل إرث اهتياج الفوضويين في الإمبراطورية الرومانية، داخل قوّة هائلة. وكانت المسيحية عنده «دستوراً» لإعلاء

---

(1) Vgl., ebda, 44. 0

(2) Vgl., ebda, 24.

(3) Vgl., ebda.

(4) Vgl., Morgenröte, 68.

شأن كل العبادات السريّة، مثل عبادة cult أوزيريس، الأم العظيمة، وميثراس ـ وتلخيصها. في هذا التبصّر تكمن عبقرية بولس.

نعم! لقد أخذ بولس الأفكار التي كانت تلك العبادات المنبوذة تظهر بها سحرها، ووضعها في فم المخلّص الذي اخترعه؛ وذلك حتى يجعل منه شيئاً يمكن أن يفهمه حتى كاهن ميثراس[1].

لكن نيتشه في موضع آخر، يقول إن نماذج عبادات cults مختلفة في المسيحية، ليس سوى إشارة إلى استخدام بسيط للعقل[2].

كان بولس، برأيه، الأنموذج النقيض «لمحضر الأخبار السعيدة» ـ يسوع. فهو أسوأ ما جاء في أعقاب الأخبار السعيدة. لقد ضحى بولس بكلّ شيء على مذبح كراهيته؛ وكان أوّل تلك الأشياء يسوع المسيح ـ سمّره إلى صليبه، صليب بولس. ومرّة أخرى عادت الغريزة اليهودية لارتكاب الجريمة ذاتها ضد التاريخ: زيّفت تاريخ إسرائيل من جديد لتجعله يبدو وكأنه تاريخ سابق لفعلتها ـ فكلّ الأنبياء اليهود حكوا عن فاديها. لم يترك بولس شيئاً من أنموذج الفادي يحمل أيّ شبه مع الواقع[3]. فمع موت الفادي بدأ بولس عملية إفساد؛ والعهد الجديد يقدّم لنا دليلاً لا يقاوم على عمق التفسّخ بين الجماعة الأولى[4]. فقد جعل بولس من «الإشارة» حالة لمصلحة ما بعد الموت، وذلك عندما عقلن الصلب، بقوله: إذا لم يقم المسيح من الموت، فإيماننا بلا معنى. وصار «البشارة» بالتالي، أحقر الوعود غير المُنْجَزة، والمذهب الوقح للخلود الشخصي[5].

---

(1) Vgl., Der Antichrist, 58.
(2) Vgl., Mergenröte, 30.
(3) Vgl., Der Antichrist, 30.
(4) Vgl., ebda, 44.
(5) Vgl., ebda, 41.

وإذا ما اعتبرنا أن بولس كان صادقاً حين جعل من هلوسته الدليل على أن الفادي ما يزال حيّاً، بل حتى إذا صدّقنا أنه كانت عنده تلك الهلوسة ـ فتلك حماقة يرتكبها عالم النفس: لأن بولس أراد أن يصل إلى هدفه ـ السلطة؛ وأراد بالتالي الوسيلة[1]. والكهنوت اليهودي والمسيحي يستخدم التفسّخ كوسيلة للوصول إلى السلطة: فهمّ هذا الكهنوت جعل الجنس البشري مريضاً عبر تلفيق مفاهيم الخير والشر وما شابه[2].

أما رؤياه في الطريق المستقيم إلى دمشق، فهي فهمه أنه كي يزيل قيمة العالم، لا بدّ له من الاعتقاد بالخلود، إلى درجة أن المفهوم «جهنم» سيكون سيّداً حتى في روما ـ وأنه بالماوراء سيقتل الحياة[3]. فحين ينقل المرء مركز جاذبية الحياة خارج الحياة، داخل الماوراء، داخل العدم، فإنّه يجرّد الحياة ذاتها من مركز جاذبيتها. لأن كذبة الخلود الشخصي تدمّر كل ما هو عقلاني. إن معنى الحياة عندهم: أن تعيش، يعني أن لا يكون معنى في العيش. والمسيحية تدين بانتصاراتها إلى هذا التملّق التافه للغرور الشخصي: كلّ فرد يساوي الآخر كنفس خالدة. وبذلك جذبت إلى صفّها كلّ من هو ضعيف، ثوري العقل، فقير؛ كل ما هو نفاية وحثالة في الجنس البشري[4]. لكن تصوّر حياة بعد الموت، مخيف أكثر من تصوّر للموت دون حياة بعده، لأنّه في الحياة ما بعد الموت تكون العقوبة ممكنة[5]. كان بولس يفهم الحاجة إلى كذبة، إلى إيمان؛ وبدورها الكنيسة فهمت بولس. لكن الإيمان كحاجة ليس سوى «فيتو» على العقل ـ الكذب بأيّ ثمن عمليّاً[6].

---

(1) Vgl., ebda, 42.
(2) Vgl., ebda, 24.
(3) Vgl., ebda, 46.
(4) Vgl., ebda, 43.
(5) Vgl., Morgenröte, 72.
(6) Vgl., Der Antichrist, 47.

إن الإله الذي اخترعه بولس لذاته، برأي نيتشه، وهو إله يدحض حكمة العالم (الطب وفقه اللّغة)، هو مجرّد تصميم راسخ من قبل بولس ذاته على فعل ذلك: وحين يسمّي أحدهم إرادته الخاصة «إلهاً»، توراة - فذلك يهودي جوهرياً. لكن الإله، كما خلقه بولس، إنكار لله. لقد أراد بولس أن يدحض حكمة العالم: وكان أعداؤه الأطباء وفقهاء اللّغة. فالطبيب يفهم ما خلف الفساد النفسي للمسيحي الأنموذجي؛ وفقيه اللّغة يرى ما وراء الكتب المقدّسة. يقول الطبيب: عضال؛ ويقول فقيه اللّغة: محتال[1].

إن ما لم يصدّقه بولس ذاته، برأي نيتشه، صدّقه أولئك المعتوهون الذين ألقى تعاليمه بينهم. كانت السلطة مطلبه؛ فمع بولس بحث الكاهن عن السلطة ثانية - لكنه لم يستطع سوى استعمال تلك المفاهيم والتعاليم والرموز التي يمكنه بها أن يستبدّ بالجماهير، ويحولهم إلى قطعان[2].

المسيحية في روما:

درس نيتشه فقه اللغات الكلاسيكي، وأصبح أستاذاً في هذا المجال في سنّ متقدّمة (24 عاماً)، أي إنّه تبرز في هذا الفرع من العلوم. وكان أول كتاب ألّفه يحمل عنوان «مولد التراجيد» (Die Geburt der Tragödie» 1872)، وعالج فيه مسألة انوجاد المأساة عند الإغريق.

كان نيتشه يفضّل لغة الرومان وحضارتهم على ما يقابل ذلك عند الإغريق. فقد قال في «شفق الأوثان»، إن الحضارة الرومانية أقرب إلى الحضارة الأوروبية من حضارة الإغريق[3]. وكان يقول باستمرار، إن الحضارة الرومانية بُنيت وفق

(1) Vgl., ebda.

(2) Vgl., ebda, 42.

(3) Vgl., Was ich den Alten Verdanke, 1, 2.

«aere pernnlus» - باللاتينية: «الجوّ الأزلي». فالرومان، في اعتقاده، بنوا حضارتهم، خاصة إمبراطوريتهم، بأسلوب أزلي. وأراد نيتشه ذاته أن يتوصّل إلى الأسلوب نفسه في كتاباته. فماذا فعلت المسيحية بالحضارة الرومانية؟

يقول نيتشه، إن المسيحية، كحركة أوروبية، كانت منذ البداية الأولى، حركة جماعية لعناصر منبوذة ومتفسّخة من كافة الأنواع (ـ يريد هؤلاء الوصول إلى السلطة عبر المسيحية ـ). إنها ليست تعبيراً عن انهيار أحد الأعراق، بل تجمّع شامل لأنماط متفسّخة من كل الأمكنة، احتشدت مع بعضها تبحث كل عن الأخرى. لم يكن تفسّخ العالم النبيل، القديم، هو الذي جعل المسيحية ممكنة. ففي حين كانت الطبقات المنبوذة، المريضة، المتفسّخة، في كافة أرجاء الإمبراطورية، تصبح مسيحية، كان الأنموذج المعاكس، أي النبالة، يتواجد في أجمل أشكاله[1].

لقد كانت الإمبراطورية الرومانية بداية؛ فقد أُعيد بناؤها كي يثبت ذاته آلاف السنين؛ وكان هذا التنظيم ثابتاً كفاية بحيث يتحمّل الأباطرة السيئين[2].

لكن المسيحيين اعتبروا أن كل جهود العالم القديم كانت عبثاً: لماذا الإغريق؟ لماذا الرومان؟ مع أن كل الشروط الأساسية لثقافة معرفية واسعة، كل الطرق العلمية ـ كانت هنالك؛ كل شيء أساسي من أجل الانطلاق للعمل قد تمّ تدبيره.

لكن جهود العالم القديم سُحِقت: ليس من قبل حادث طبيعي، بل دمّرتها هامات مخادعة. لم تُقْهر ـ بل امتصّت حتى الجفاف فقط. وفجأة صار على القمة عالم غيتو النفس: وما على واحدنا سوى قراءة عالم المهيّجين المسيحيين ليدرك أيّ أشخاص قذرين وصلوا إلى القمة. وسوف يضلّل المرء ذاته إذا افترض عوزاً في

(1) Vgl., Der Antichrist, 51.

(2) Vgl., ebda, 58.

الذكاء من أيّ نوع عند القادة المسيحيين - إنهم دهاة إلى درجة القداسة. لكن الطبيعة نسيت أن تهبهم حتى العدد المتواضع من الغرائز المحترمة[1].

وسقطت الغرائز في روما؛ صارت الغالبية سيّد الإمبراطورية الرومانية؛ انتصرت ديمقراطية الغرائز المسيحية[2].

لقد استطاعت المسيحية أن تضمّ إلى صفّها الغالبية العظمى، من أجل محاربة الأرستقراطية الحاكمة. واستخدم قادتها لأجل ذلك أساليب كثيرة، يذكر نيتشه أشهرها:

أوّلاً: حربها حتى الموت على التباين والاحترام بين الإنسان والإنسان الآخر. وهو ما جعلها تصوغ من حقد العامّة والرعاع سلاحها الرئيس ضد الأرستقراطية؛ وكان الخلود الذي وُعِد به هؤلاء أكبر اعتداء وأخبثه، ارتكب يوماً بحق الجنس البشري النبيل. فَدُمِّر الفكر الأرستقراطي بكذبة تساوي الأنفس. والمسيحية بالتالي تعتبره ثورة كل ما يزحف على الأرض ضد كل ما هو مرتفع: وإنجيل الوضيعين لا يصنع سوى الوضاعة[3].

ثانياً: لم تكن المسيحية ديناً قومياً، ولا مشروطاً بعرق. لهذا استدارت إلى اللاموروث في الحياة، من جميع الأنواع؛ وكان لها مؤيّدوها في كل مكان[4].

ثالثاً: اليأس. فللمسيحية غريزة اصطياد كل هؤلاء الذين يمكن أن يوصلهم أيّ شيء إلى اليأس[5].

---

(1) Vgl., ebda, 59.
(2) Vgl., ebda, 51.
(3) Vgl., ebda, 43.
(4) Vgl., ebda, 51.
(5) Vgl., Morgenröte, 64.

رابعاً: فرض المسيحيون نوعاً من الحياة ومن العادات اليومية والذي يؤثر كتأديبٍ للإرادة ويبعد الملل في الوقت ذاته؛ ثم أعطوا لهذه الحياة تفسيراً، ظهرت بفضله وكأنها القيمة العليا، التي إذا امتلكها المرء لا بدّ أن يقاتل لأجلها بل يموت إذا وجد ضرورة لذلك. وهكذا وضع المسيحيون في حيوات الرومانيين، من غير الأرستقراطيين - حيوات فاضلة ومتواضعة ومكبوتة - المعنى الأعلى والقيمة العليا - وفق تفسيرهم لها. وشجعوهم بالتالي على احتقار كافة أشكال الحياة الأخرى[1].

خامساً: تضع المسيحية في أساسها حقد المرضى، والغريزة الموجّهة ضد كل ما هو صحي، وضد الصحة. فقد كان شعارها قول بولس، إن الله اختار الأشياء الضعيفة ليدحض حكمة العالم. وبذلك الشعار انتصر التفسّخ. وحين يكون الله على الصليب، فذلك يعني: كل ما يعلّق على الصليب، كل ما يعاني، هو إلهي. وإذا نحن تعلّقنا على الصليب، فنحن إلهيون[2]. وهكذا اكتشفت المسيحية رسالتها في وضع حدٍّ للإمبراطورية الرومانية وتدميرها؛ وفي القضاء على تلك النظم الاجتماعية - لأن الحياة ازدهرت فيها. وبين يوم وليلة، سُمِّم الحصاد. فقد دمّر هؤلاء الفوضوين المقدّسون الإمبراطورية بين عشية وضحاها، فلم يتركوا حجراً على حجر[3]. كانت المسيحية انتصاراً، ماتت به سلطة نبيلة[4].

في صيغة «الله فوق الصليب»، انتقم العبد الشرقي من روما، ومن تسامحها الأرستقراطي الطائش. العبد يريد المطلق. إنه لا يفهم إلّا التعسّف حتى في

(1) Vgl. Die fröhliche Wissenschaft, 353.
(2) Vgl., Der Antichrist, 51.
(3) Vgl., ebda, 58.
(4) Vgl., ebda, 51.

ميدان الأخلاق - فهو يحب كما يكره[1]. وقد أخبرنا تاسيتوس، أن المسيحية الأولى، أدينت زمن نيرون، بكراهية الجنس البشري[2].

المسيحية والإغريق:

بعكس الرومان الذين أبدى نيتشه تعاطفاً كبيراً معهم، يبدو موقفه من الإغريق، خاصة فلاسفتهم، شبه عدائي.

يربط نيتشه بقوة بين أفلاطون والمسيحية: «ما أكثر ما بقي من أفلاطون في المفهوم «كنيسة» وفي بناء الكنيسة، ونظامها وعرفها»[3]: «فالمسيحية هي أفلاطونية الجماهير»[4]. ويبدو، بالمناسبة، قول نيتشه السابق صحيحاً إلى حدّ ما، فالمسيحية التي وصلت إليه، كانت مزيجاً يونانياً «سامياً»؛ وقد نجرؤ على القول، إن الجوهر «السامي» ضاع في زخم العقل اليوناني.

يفضّل نيتشه أن يصف أفلاطون، كظاهرة، بأنّه «المثالية - الخداع الرفيع القاسي»[5]؛ لذلك، لا يستغرب أن يجد كل اللاهوتيين على خطاه[6]. وتتركّز اعتراضاته على أفلاطون فيما يلي:

- اعتبار أفلاطون المفهوم «خير» كمفهوم خارق[7].
- اختراع أفلاطون للروح المجرّدة والخير في ذاته[8].

---

(1) Vgl., Jenseits von Gut und Böse, 46.
Morgenröte, 71.

(2) Vgl., Morgenröte, 63.

(3) Götzen - Dāmmerung, was ich den Alten verdanke, 2.

(4) Jenseits vin Gut und Böse, 62.

(5) Götzen - Dāmmerung, ebda.

(6) Vgl., Jenseits von Gut und Böse, 191.

(7) Vgl. Götzen - Dammerung, ebda.

(8) Vgl. Jenseits von Gut und Böse, 52.

- رغبة أفلاطون في البرهان على أن العقل والغريزة يتجهان من ذاتيهما إلى هدف واحد، هو الخير، أو الله[1].

- بعدما احتل الرعاع روما، جاء دور أنبل الطبائع كي تخطو نحو الجسر الذي يقود إلى الصليب. وهنا جاء دور أفلاطون الذي مكّنها من ذلك عن طريق الغموض والسحر المدعوين «مثالاً»[2].

لكن نيتشه لا يعمّم حالة أفلاطون على جميع الإغريق؛ فهو يراه «منحرفاً جدّاً عن غرائز الهلينيين الأساسية، وملوّناً أخلاقيّاً جدّاً، وسلفاً مسيحيّاً جدّاً»[3].

لم تحضّر المسيحية ذاتها، إلّا حين بلغ الغوغاء أعلى مراتب السلطة في اليونان، فأصبح الخوف من الدين طاغياً. وقبل ذلك، كانت «الوفرة الجامحة للعرفان بالجميل» تنبعث من تدين الأرستقراطيين[4]. هذا يعني برأي نيتشه، أن الإغريق مرّوا بمرحلتين: مرحلة أولى سيطر فيها الأرستقراطيون على السلطة؛ ومرحلة ثانية احتل فيها الرعاع القمة. وقد اخترقت المسيحية هؤلاء الرعاع؛ بعكس الرومان، حيث جاء الرعاع المسيحيون، وقلبوا إمبراطوريتهم (ـ الرومان ـ)، رأساً على عقب.

لقد أفسدت المسيحية، برأيه، الكثير من مفاهيم الإغريق النبيلة: «أعطت المسيحية الأيروس السّم كي يشربه: ـ لم يمت منه حقّاً، لكنه فسد، صار رذيلة»[5]؛ «إن الرمز الجنسي عند الإغريق كان الرمز الجليل بذاته. فآلام المخاض، قدّست الألم. ونُظِر إلى التناسل، الذي هو الطريق إلى الحياة، كطريق مقدّسة.

---

(1) Vgl., ebda, 191.
(2) Götzen - Dammerung, ebda.
(3) Vgl., ebda.
(4) Vgl. Jenseits von Gut und Böse, 94.
(5) Ebda, 168.

وحدها المسيحية، التي تضع الغلّ على الحياة في أساسها، هي التي جعلت من الجنس شيئاً نجساً: فرمت بذلك القذارة على البداية؛ على شرط حياتنا»[1].

المسيحية أوروبية؟!

يستنكر نيتشه أن تكون المسيحية أوروبية - نبيلة أساساً. فهنالك شيء شرقي وشيء أنثوي في المسيحية وهو ما يُظهر ذاته في فكرة «الله يضرب من يحب»؛ لأن النساء في الشرق ينتظرن ضرب أزواجهن لهن، وإقصائهم الصارم لهن عن العالم، وتتشاجر إحداهن مع زوجها إذا لم يُظْهر هذه العلامة[2]. - فكيف صارت المسيحية أوروبية؟

يقول نيتشه: حين ذهبت المسيحية تبحث عن القوّة بين الشعوب البربرية، كالتوتونيين مثلاً، لم تعد تستلزم كيانات بشرية مُرْهقة، بل كائنات متوحشة وممزّقة جوهريّاً من الداخل - كائنات بشرية قوية لكنها مخلخلة البنيان. وهنا لم يعد السخط على الذات، المعاناة من الذات، حساسية وقدرة مفرطة على الألم، بل رغبة عارمة لفعل الأذى، لإفراغ توتّر داخلي في أفعال وأفكار عدائية. ومن أجل أن تسيطر المسيحية على البرابرة، كانت بحاجة إلى مفاهيم وقيم بربرية: التضحية بالبكر، شرب الدم في المناولة، احتقار العقل والثقافة، إعادة الأبهة العظيمة للعبادات الشعبية[3]. خاصّة وأن المسيحية، برأيه، امتصّت مبادئ - وطقوس - كل العبادات السريّة في الإمبراطورية الرومانية: امتصّت سخافات كل العقول المريضة[4].

كانت المسيحية ترغب بالسيطرة على بهائم الفرائس؛ وكانت وسيلتها في ذلك

---

(1) Götzen - Dammerung. Was ich den Alten verdanke. 4.

(2) Morgenröte, 75.

(3) Vgl., Der Antichrist, 22.

(4) Vgl., ebda, 37.

إمراضها - فالإضعاف هو الوصفة المسيحية لأجل التدجين، لأجل «الحضارة»[1]. وكان مضمون أخلاق المسيحيين هو، «تدجين الإنسان المتوحش». وكان الكهنة يطاردون أنواع الوحش الأشقر في كافة أرجاء أوروبا - كالتوتونيين النبلاء، على سبيل المثال. فصارت الكنيسة أشبه ما يكون بمعرض الوحوش المحسّنة. لكن ماذا صار توتوني كهذا بعدما «حُسّن» واقتيد إلى الدير؟ إنه يشبه كاريكاتيراً بشرياً، يشبه سقطاً: صار آثماً، يجلس في قفص، حيث سُجِن خلف مفاهيم مريعة تماماً ليس إلّا... والآن يضطجع هناك، مريضاً، تعساً، مليئاً بالكراهية لذاته؛ مليئاً بالكراهية لدوافع الحياة؛ مليئاً بالارتياب بكل ما بقي قوياً وسعيداً في أيّ مكان. - باختصار: مسيحي. بتعابير فيزيولوجية: في الصراع مع الوحش؛ فإن أفضل وسيلة لإضعافه هي إمراضه. وهذا ما استوعبته الكنيسة: لقد فسّخت الكيان البشري، أضعفته - لكنّها ادّعت أنّها حسّنته[2].

لوثر والبروتستانتية:

لا بدّ أن نلاحظ هنا، أن الد نيتشه كان راعياً لوثرياً وابناً لراعٍ لوثري أيضاً - والأخير، كان بدوره كاتباً، قدّم بعض الأعمال، أشهرها، «البقاء الأبدي للمسيحية»، عام 1797. كذلك كانت أمه ابنة لراع لوثري آخر. وفيلسوفنا ذاته، درس اللاهوت في جامعة بون، عامي 1864 و1865.

ثمة شخصية هامة في تاريخ المسيحية، توقف عندها نيتشه في كتابيه، «بمعزل عن الخير والشر» و«عدوّ - المسيح»: قيصر بورجيا (1475 - 1507)؛ تلقي لنا بعض الضوء حول مواقف الفيلسوف من لوثر والبروتستانتية. وقيصر بورجيا، هو ابن البابا إسكندر السادس؛ سياسي مجرم كامل، كان «أنموذج»

(1) Vgl., ebda, 22.

(2) Vgl., Götzen - Dämmerung, Die «Vervesserer» der menschheit, 2.

ميكيافيلي في كتابه «الأمير». اشترك في اغتيال أخيه دوق غانديا عام 1497. وحاول إنشاء دولة مستقلة وراثية على حساب الممتلكات البابوية.

تستدعي معالجة نيتشه لشخصية قيصر بورجيا بعضاً من سوء الفهم. ففي «بمعزل عن الخير والشر»، يسمّيه، «وحش الفريسة» و«الوحش القطبي»[1]، وهما ليستا عبارتي استحسان: لكنه يرفض الموافقة على أنّ أناساً مثله مرضى، أو أنّه أنموذج بشري مدجّن كليّاً. فبورجيا، عقدة، رمز للإنسان القوي الذي لم تتسامَ فيه إرادة القوة. لكنه، في «عدوّ المسيح» يرى أن المسيحية كادت أن توشك على الانتهاء، على يدي قيصر بورجيا. فهي لم تعد في زمنه تجلس على العرش البابوي؛ بل الحياة. وكانت تلك، برأيه، الحرب العظيمة الوحيدة ضد المسيحية، الهجوم على النقطة الحاسمة، على مركز المسيحية بالذات؛ وضع القيم النبيلة على العرش البابوي، حيث تمّ إرساء تلك القيم في أعمق حاجات ذلك الذي يجلس على العرش ـ قيصر بورجيا.

ماذا حدث؟

يقول نيتشه، إن راهباً ألمانياً، اسمه لوثر، ذهب إلى روما. هذا الراهب، كل الغرائز الحقودة للكاهن الفاشل فيه، انفجرت في روما ضد عصر النهضة. لقد رأى لوثر أن البابوية كانت تتفسّخ، في حين إن العكس هو الصحيح. فجدّد لوثر الكنيسة، عبر هجومه عليها[2].

لكن الإيمان برأي نيتشه، لم يكن هو المتحكّم عند لوثر، بل الغرائز: الإيمان عنده مجرّد قناع تلعب خلفه الغرائز لعبتها ـ تمام داهية عن سيطرة غرائز معينة. لقد حكى عن الإيمان دائماً، لكنه لم يتصرف إلّا بوحي من الغريزة[3].

---

(1) Vgl., 197.

(2) Vgl., Der Antichrist, 61.

(3) Vgl., ebda, 39.

وهكذا يصل نيتشه إلى نتيجة مفادها، أن الألمان، عبر لوثر، سرقوا من أوروبا آخر حصادي ثقافي عظيم: حصاد عصر النهضة ـ عصر «إعادة تقويم كل القيم»، محاولة نصر القيم النبيلة.

كان الألمان أوّل من تبنى البروتستانتية، التي جاءت في أعقاب ثورة لوثر على البابوية، والتي هي وفق التعريف النيتشوي: «أوسخ نوع ظهر للوجود من المسيحية، أكثر أنواعها عضالاً، نوع يصعب دحضه». لذلك إذا لم تتخلّص من المسيحية، يجب أن يلام الألمان[1].

ومن الجدير بالذكر هنا، أن «الإصلاح» الذي بدأه لوثر، أدّى أخيراً إلى «إصلاح مضاد» في الكنيسة الكاثوليكية ـ ونيتشه يرى أن حركات الإصلاح أعادت تجديد المسيحية، ولولاها لتفسّخت وسقطت إلى الأبد.

يركز الفيلسوف في إشاراته الكثيرة إلى لوثر، على عداء الأخير للعقل[2]. لذلك فالبروتستانتية، برأيه، هي الشلل النصفي للمسيحية ـ والعقل. ومن البروتستانتية ينطلق إلى حملة شعواء ضد الفلسفة الألمانية. فالقس البروتستانتي، كما يراه، هو جدّ الفيلسوف الألماني. والبروتستانتية هي الخطيئة الأصلية للفلسفة الألمانية، التي تفسّخت بالدم اللاهوتي. فالعالم الأكاديمي الألماني مؤلف في ثلاثة أرباعه من أبناء القساوسة والأساتذة. باختصار: الفلسفة الألمانية، أساساً، لاهوت مخادع. من هنا، فنيتشه يربط بقوة بين لوثر وكانط. ويقول إن أساس المنطقية الألمانية هو أن يكون عند الإنسان شيء يمكنه أن يطيعه بشكل مطلق؛ ويمكن أن نجد هذه المنطقية في كل التعاليم الأخلاقية الألمانية. وقبل كانط وأمره المطلق، قال لوثر

(1) Vgl., ebda, 61.

(2) Vgl., Die frohliche Wissenschaft, 129.

بالإحساس ذاته: يجب أن تكون هنالك كينونة والتي يتمكّن الإنسان من الثقة بها بشكل مطلق. وكان هذا دليله على وجود الله[1].

يعزو نيتشه سبب نجاح الإصلاح اللوثري في ألمانيا، إلى عاملين: أوّلاً؛ لم يكن هنالك، زمن لوثر، شعب أكثر مسيحية من الألمان، وكانت الكنيسة الألمانية أقل تفسّخاً من الكنيسة الأم في روما؛ لذلك لم يستطع هذا الشعب تحمّل بدايات التفسّخ. وثانياً؛ كان الشمال (ـ يعكس ما هي الحال عليه ـ) في أوروبا أكثر تخلّفاً عن الجنوب، وكانت حاجاته بسيطة ومتطلّباته غير متعدّدة[2].

نقد القيم المسيحية:

يتساءل نيتشه في بداية كتابه «عدوّ المسيح»: ما هو الخير؟ فيجيب: إنّه كل ما يُعْلي إرادة القوة، شعور القوة، والقوة ذاتها في الإنسان. وما هو الشر؟ إنّه كلّ ما ينتج عن الضعف[3]. وحيثما تفتقد إرادة القوة هنالك انهيار. لكن إرادة القوة مفقودة في كل القيم الفائقة للجنس البشري ـ قيم التفسّخ تلك، القيم العدمية التي تفيض على الحكم تحت أقدس الأسماء. ففساد الإنسان، أي تفسّخه، موجود تحديداً حيثما يتوق بأكبر وعي إلى الفضيلة، إلى الألوهة[4]. وهكذا فإن كل القيم التي يختصر فيها الجنس البشري أرفع رغباته اليوم، قيم متفسّخة[5]. والأوروبي لا يمثّل تطوّراً نحو الأفضل أو الأقوى؛ فأوروبي اليوم أقل قيمة بكثير من أوروبي عصر النهضة[6]. والأوروبيون، برأيه، مرضى ـ من الحلول الجبانة، من كل النجاسة

(1) Vgl., Morgenröte, 207.
(2) Vgl., Die frohliche Wissnschaft, 148.
(3) Vgl., Der Antichrist, 2.
(4) Ebda, 6.
(5) Ebda, 6.
(6) Ebda, 4.

الفاضلة للنّعَم واللّا العصريتين. وأفضل لك أن تعيش بين الثلوج على أن تعيش بين الفضائل العصرية والرياح الجنوبية الأخرى[1].

إن الإنسان المسيحي، برأيه، هو الحيوان الداجن، حيوان القطيع، الإنسان الحيوان المريض، الذي هو النمط المعاكس للإنسان الفائق[2] übermensch. لكن هذا الأخير، رغم تواجده حتى الآن بشكل كافٍ على الأغلب، لم يتواجد كما رُغِب قط، بل كاستثناء[3]، كحالات نجاح فردية تظهر باستمرار في كافة أرجاء الأرض[4]. لكنه كان النمط الأكثر إخافة. ومن الخوف ظهرت الرغبة بالنمط المعاكس. لذلك شنّت المسيحية حرباً حتى الموت على نمط الإنسان الفائق، وحظرت كل الغرائز الأساسية لهذا النمط، واستقطرت الشر، والشيطان من هذه الغرائز ـ كانت الكينونة البشرية القوية، في المسيحية، تنتمي إلى نمط منبوذ، يستحق التوبيخ وهكذا فقد خلقت المسيحية، برأيه، مثالها الأعلى من معارضة الغرائز الحافظة للحياة القوية، فحرمت العقل من أقوى طبائعه فكرياً، عن طريق تعليم الناس أن القيم الفائقة آثمة، مضلّلة، ومغوية. ووقفت بالتالي في صف كل ما هو ضعيف، ودنيء، ومريض[5].

إن القيم الفائقة، برأيه، هي تلك التي يخترعها واحدنا لذاته: فعلى كل واحد أن يخترع فضيلته الخاصة، وضرورته الشخصية المطلقة. ويفنى الشعب إذا خلط بين واجبه الخاص والمفهوم العام للواجب. فلا شيء أكثر تخريباً من أيّ واجب «موضوعي»، أية تضحية إلى «مولوخ» التجريد؛ لا شيء أكثر تدميراً من أن تعمل وتشعر وتفكّر دون حاجة داخلية، ولا اختيار شخصي عميق، ودون متعة.

---

(1) Ebda, 1.
(2) Ebda, 1.
(3) Ebda, 3.
(4) Ebda, 4.
(5) Ebda, 5.

ففعل تفرضه غريزة الحياة، يملك في متعة تنفيذه، الدليل على أنه صحيح: لكن كل فعل، بأحشاء مسيحية يرفض المتعة[1]. أما مفاهيم الكنيسة، برأيه، فهي باختصار: نوع من العملات المزيفة الموجودة بهدف بخس قيم الطبيعة[2]. لذلك فمن غير المعقول أن يفسّر كل شيء وفق أنموذج مسيحي؛ ومن غير المعقول أن يُكْتَشف الإله المسيحي - ويبرّز - في كل صدفة[3].

إن المسيحية، كما يراها، هي أقصى شكل للفساد يمكن تخيله، فالكنيسة المسيحية، لم تترك شيئاً لم تمسّه بفسادها. فجعلت من كل قيمة رذيلة، ومن كل حقيقة كذبة، ومن كل نوع كمال تفاهة نفس. وهي، كل تسرمد ذاتها، خلقت حالات أسى، قبضت على الإنسان داخلها: تساوي الأنفس أمام الله الذي هو ستار لكل حقد دنيء للعقل، ومبدأ لانحطاط النظام الاجتماعي بكامله؛ مثالها الأعلى عن القداسة الذي يستنزف كل أملٍ بالحياة؛ الماوراء باعتباره إرادة إنكار الواقع أيّاً كان نوعه؛ والصليب باعتباره شارة الاعتراف لأكثر أنواع التآمر سريّة وجدت يوماً[4]. وهؤلاء المسيحيون سيطروا إلى الآن على مصير أوروبا، بتشابههم أمام الله، حتى رُبّي أخيراً، نمط مضحك، مصغّر، إمعة، شيء متوسط - الأوروبي الحالي[5]. فما ربّى الفكر في أوروبا هو هذا التعسّف، هذا الطغيان، هذا الغباء المتزمّت الفاخر: إنه التفسير الأخلاقي المسيحي لأقرب الأحداث الشخصية بوصفها إكراماً لله ولسلامة النفس[6]. لذلك فالمسيحية، برأيه، النوع الأكثر شؤوماً من كبرياء الذات[7].

---

(1) Ebda, 11.
(2) Vgl., Jenseits von Gut und Böse, 188.
(3) Ebda.
(4) Ebda.
(5) Vgl., Jenseits von Gut und Böse, 62.
(6) Vgl., ebda, 188.
(7) Vgl., ebda, 62.

وأخيراً، ينتهي إلى القول: إني أشعر باحتقار إنسان اليوم. لكني أتحمّل إنسان الماضي كثيراً. فما كان مجرّد مريض سابقاً صار اليوم غير لائق. فنحن اليوم لم نعد نتحمل الحقيقة بقدر ما يلفظ الكاهن الكلمة تلك. إن أكثر مطالب الكمال تواضعاً تفرض على المرء معرفة أن اللاهوتي، القس، والبابا، لا يخطئون في كلّ كلمة يقولونها - إنهم يكذبون: فهم لم يعودوا أحراراً في أن يكذبوا ببراءة، بداعي الجهل؛ فالكاهن يعرف أنه لم يعد هنالك أيّ إله، أيّ آثم، أيّ فادٍ - وأن الإرادة الحرة ونظام الأخلاق العالمي كذبتان[1].

نقد القيم المسيحية: الرحمة، الشفقة، المحبّة!

يقول نيتشه، إن لا شيء أكثر ضرراً في حداثتنا الضارة من الرحمة المسيحية. المسيحية ذاتها تُدعى ديانة المحبة. لكن الرحمة في حقيقتها تعارض قانون التطوّر، الذي هو قانون اصطفاء، لأن الرحمة تحتفظ بكل ما يجب الخلاص منه؛ وتعطي الحياة بالتالي مظهراً كئيباً ومثيراً للاستفهام.

لقد تجرأ واحدهم ودعا الرحمة فضيلة وذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فخلق منها الفضيلة، وجعلها أصل كل الفضائل وأساسها. لكن هذه الغريزة الموهنة والمعدية تعيق تلك الغرائز التي تعمل على حفظ قيمة الحياة وتعزيزها. فالرحمة إذن تحثّ على العدم. لكنهم لا يقولون عدماً، بل يقولون: «ما وراء»، «إله»، «حياة حقيقية»، نيرفانا، فداء، مباركة. مع ذلك فهذه البلاغة البريئة المنتمية إلى حقل الصفات الدينية الأخلاقية تظهر أقل براءة بكثير حين نفهم أيّ ميل يرمي حول ذاته هنا حجاب الكلمات السامية: إنه الميل المعادي للحياة[2]. إن التعاطف الفاعل مع المرضى والضعفاء، أكثر أذية من أية رذيلة[3].

---

(1) Vgl., Jenseits von Gut und Böse, 188.

(2) Vgl., Der Antichrist, 7.

(3) Vgl., ebda, 2.

الإشفاق على الجميع، برأيه، يعني أن لا يشفق المرء على أحد: «الشفقة مع الجميع - كانت شدةً واستبداداً معك يا سيدي، يا جاري»[1].

المسيحية ديانة الحب. والحب، برأيه، هو الحالة التي يرى فيها الإنسان الأشياء، أولاً، على غير حالتها الحقيقية: فهو قوة خداع خالقة؛ قوة محلية ومحولة. والإنسان يتحمل كل شيء عندما يحب، ويسامح في كل شيء. لذلك وجب أن يكون الإله شاباً، لإرضاء حرارة النساء؛ وكانت مريم، من أجل الرجال. لكن يجب أن لا ننسى هنا أن المسيحية أرادت أن تسود في كل مكان حددت فيه عبادة أدونيس أو أفروديت مفهوم الديانة. بعد ذلك تأتي العفة، لتنمي الاتقاد والتوتر الداخليين للغريزة الدينية. فجعلت العبادة أدفأ، أكثر حماسة، وأكثر عاطفية[2]. لكن من يتحدث عن الحب بشكل موله ومفخم، هو ذلك الذي لم يتمتع به إلّا قليلاً، ولم يسمح له أن يأكل من هذا الطعام حتى الشبع: فجعل هذا الطعام بالتالي قوت آلهة[3].

لذلك كانت المسيحية تعارض الفلسفة واهتمامها بالعقل. فالحكماء القدامى اعتبروا حكم المشاعر غير مناسب؛ والفضيلة بالنسبة لهم كانت تعني انتصار العقل على المشاعر. لكن المسيحيين يرفضون هذا التعريف ويسمونه «غير أخلاقي»: إنهم يحبون المشاعر ويشترطونها، كحب الله، الخوف من الله، الإيمان بالله، والأمل بالله[4].

إن الإحساس بمشاعر الآخرين، هو ما تطالب به المسيحية، يعني برأي نيتشه، أن نشعر بالآخر كما يشعر هو بنفسه؛ لكن الفيلسوف يتساءل: ماذا لو كان هذا

---

(1) Vgl., Jemseits von Gut und Böse, 82.

(2) Vgl., Der Antichrist, 42.

(3) Vgl., Morgenröte, 147.

(4) Ebda, 58.

الآخر يكره ذاته، مثل باسكال - هل علينا أن نشاركه في مشاعره؟[1] مقابل ذلك، يعتبر نيتشه أن حب إله واحد بربرية، لأنه يكون على حساب الباقين[2].

إن من يحتاج إلى الحدّ الأقصى من الإحسان واللطف والسلام، هو الضعيف والمعاني إلى الحدّ الأقصى - وهو ربما بحاجة إلى إله هو في الأصل إله يعمل شافياً للمرضى. إن من يحتاج إلى دين الشفقة، كحجاب وكصرعة موسمية، هو أشباه الرجال والنساء الهيستيريات[3].

نقد قيم أخرى:

يقول نيتشه إن المسيحيين جيدون ولطفاء (وبشكل خاص: غير هجوميين) بسبب الخمول ليس إلّا؛ وبسبب هذا الخمول يعيشون «زاهدين» دون حاجات. لكن الزهد بحدّ ذاته نوع من الانتحار. وهكذا فالمسيحية جعلت من الرغبة بالانتحار، الموجودة منذ زمن نشأتها، مرفاع سلطتها: الاستشهاد والفناء البطيء لذات الزاهد - وصفت كل الأنواع الأخرى. لكنها ألبست الاستشهاد والزهد أعلى أنواع الوقار وأرفع الآمال[4].

يرى نيتشه أن المسيحية تعتبر العلم شيئاً من الدرجة الثانية: إنه قضية هوى، وليس مطلقاً ولانهائياً[5]. وهكذا كان العلم خادماً للاهوت زمناً طويلًا. لكنه بعدما تخلص منه الآن، استدار يشرع للفلسفة قوانين جديدة، ويلعب مرة أخرى دور السيد: والفيلسوف هو الآن العالم[6].

---

(1) Ebda, 63.
(2) Vgl. Jenseits von Gut und Böse, 67.
(3) Vgl., Die frlliche Wissenschaft, 370, 377.
(4) Vgl., Die frohliche wissenschaft, 137.
(5) Ebda, 123.
(6) Vgl. Jenseits von Gut und Böse, 204.

يرفض نيتشه كل أشكال الأخلاقية المسيحية لأنها، ببساطة، أوامر. فالمسيحية تفترض أن الإنسان لا يستطيع أن يعرف من ذاته ما هو خير له وما هو شر: المسيحي يؤمن بالله، والله وحده يعرف. وأصل الأخلاق المسيحية بالتالي متعالٍ، وهي فوق النقد، فوق حق النقد؛ لكن الأخلاق المسيحية لا تمتلك حقيقة إلّا إذا كان الله حقيقة ـ فهي إما أن تقف مع الاعتقاد بإله أو تسقط معه(1).

يتحدث نيتشه عن تناقض مفهوم الإحسان المسيحي، فيقول إنه بحسب الكتاب المقدس، من غير الكرم أن تعطي أشياء لآخرين حتى يقال عنك كريماً ليس إلّا؛ لأن معنى ذلك أنك لا تريد سوى امتداح ذاتك. لكن إذا كان علينا أن نعطي إلى شخص دون أن يعرفنا، فلماذا لا يكون الأمر هو ذاته بالنسبة لله؟ الكهنة يقولون إنه يجب أن نشكر الرب على كل ما أعطانا إياه ـ فهل يريد الرب أن نشكره فعلاً؛ هل هو بحاجة إلى الشكر؟ هل هو بحاجة إلى المديح؟ وهل هو، أخيراً، غير كريم؟(2).

إن أسوأ حكم قيمة في المسيحية، هو: الحياة لا تستأهل أيّ شيء! وحكم كهذا، برأيه، معدٍ ومميت ـ لكنه نشأ بفخامة على تربة مريضة بالكامل(3). كيف؟

إن الرعاعة المسيحي الذي يشعر بالوضاعة، يعاني فعلاً من هذا الشعور. لذلك لا بدّ له من البحث عن شيء يفرغ فيه حقد معاناته ـ يلومه على حقيقة أنه يعاني. ولا يجد أمامه الدواء لمعاناته سوى الثأر. إنه يثأر من الحياة؛ وبالتالي فهو دائماً يشجب هذا العالم(4).

الشك إثم في المسيحية: فكل شك محظور. وشرط الشك هو العقل: فاستعمال

(1) Vgl. Gōtzen Dāmmerung, Strifzuge eines Unzeitgemāβen, 5.

(2) Vgl., Morgenrōte 464.

(3) Vgl. Gōtzen Dāmmerung, Strifzuge eines Unzeitgemāβen, 38.

(4) Vgl. Ebda, 34.

العقل ممنوع أيضاً. على الإنسان أن يؤمن فقط؛ لكن أفضل أنواع الإيمان هو الإيمان دون عقل، لأن استعمال العقل قد يؤدي إلى البحث في الإيمان وأصله. وماذا يريد واحدهم كي يمنع الشك والعقل إذن؟ إنه لا يريد سوى عمى ونشوة وغناء سروراً فوق الأمواج، يغرق فيها العقل[1].

في المسيحية تدخل غرائز المستعبدين والمضطهدين إلى صدر الصورة: فيها تبحث أحط الطبقات عن النجاة. وكعلاج نوعي للضجر، يفتي هؤلاء بمسائل كالإثم، انتقاد الذات، استسلام الضمير، بوصفها أشياء مجرّبة. وهنا تصبح أرفع الأشياء غير محرزة، بل عطايا، نعمة، وهنا أيضاً، يوجد عوز للانفتاح الشعبي: فليس سوى السرية والحجرات المظلمة. الجسد محتقر، علم الصحة منكر باعتباره حسية؛ بل إن الكنيسة تقاوم النظافة. هنا شعور بالقساوة حيال الذات وحيال الآخرين؛ كراهية أولئك الذين يفكرون بشكل مختلف؛ وإرادة الاضطهاد. إن الأفكار الغريبة والمستفزة تحتل واجهة الصورة. والحالات المرغوبة بأكثر ما يمكن والتي تطلق عليها أرفع الأسماء حالات صرعية. هنا الحمية موجودة لتشجيع ظاهرة مرضية وللإفراط في استفزاز الأعصاب. والمسيحية بالتالي عدائية مميتة تجاه سادة الأرض، تجاه «البلاء» ـ وفي الوقت ذاته، تنافس سري خفي. إنها كراهية ـ للعقل، الحواس، متعة الحواس، والمتعة عموماً[2].

لقد حاولت المسيحية أن تدل الإنسان على الطريق الأقصر إلى الكمال الأخلاقي؛ لكنها لم تكن سوى الطريق الأقصر التي يطلبها اليائسون والمتعبون فقط[3].

---

(1) Vgl. Morgenröte, 89.
(2) Vgl. Der Antichrist, 21.
(3) Vgl. Morgenröte, 58.

إن المحدودين فكرياً يفضلون الحكم الأخلاقي كوسيلة للثأر من الذين أقل منهم محدودية؛ وكذلك فهو ـ الحكم الأخلاقي ـ نوع من التعويض عن عدم عدل الطبيعة في التعامل معه؛ وهو أيضاً فرصتهم للحصول على «روح» ترقيهم[1].

لقد تحولت المسيحية الآن إلى أخلاقية. وأفضل ما بقي منها هو نظرتها الإيجابية إلى العالم. فكل ما يحدث في الكون «تقدسه» المسيحية لأنه تعبير عن إرادة الله. ونظرة كهذه إنما تشير إلى نوع من الاستقالة والتواضع من قبل أولئك الذين يقبلون بكل شيء. ودين وصل إلى هذه الدرجة من استحسان العالم؛ دين ليس له هدف أو غاية، هو دين تحول إلى ما يمكن أن نسميه، «أخلاقية النعمة» ـ أي، بقيت القيم وذهبت إرادة التغيير. لأن كل شيء يحدث وفق إرادة الله[2].

في حديثه عن القربان، الرمز الأهم في المسيحية، يقول نيتشه إنه ضروري للتعويض عن كراهية الله للإثم، والمسيحيون يضحون بالتالي بالكثير من الأمور الجيدة: كالعقل، والتاريخ، والعالم[3].

وأخيراً...

يقول نيتشه مخاطباً الذين يخالفونه قناعاته، خاصة أولئك المسيحيين: يجب على الإنسان أن يحاول فعلاً قبول الرأي الآخر الذي هو ضد قناعاته وأن يحاول العيش وفقاً له حتى يستطيع أن يحكم عليه، أي أن يحصل على الحق بالحكم عليه. ولا يسمح له بالعودة إلى المذهب السابق إلّا نتيجة لمقارنة منطقية[4].

---

(1) Vgl. Ebda.
(2) Vgl. Morgenröte, 92.
(3) Vgl., ebda, 94.
(4) Vgl., ebda, 61.

2 ـ اليهودية:

يكتنف الغموض بعض الشيء موقف نيتشه من اليهودية: فهو من جهة، يمتدح إسرائيل في عهد المملكة؛ ومن جهة ثانية، يشنّ هجوماً عنيفاً على إسرائيل في عهد الأنبياء والكهنة، إلى درجة أنه يعتبر المسيحية، وهي الديانة التي اتسمت مواقفه منها بالرفض المطلق، نتاجاً طبيعياً لليهودية الثانية.

وفي حديثه عن إسرائيل المملكة، يقول مادحاً إن علاقتها بالأشياء كانت صحيحة وطبيعية. كان شعبها يؤمن بذاته، وبإلهه الخاص أيضاً. فإحساس هذا الشعب بالقوة، كانت يعكسه على كائن، هو «يهوه»، يشكره لأجل ذلك: كان «يهواهم» تعبيراً عن وعيهم للقوة؛ وفيه كانوا يتوقعون الانتصار. إله كهذا كان مفيداً وضاراً في آنٍ: يحبّ الخير والشر على حدّ سواء. وكان منطقهم كأمّة قوية: إله إسرائيل إله العدل. وكانت الديانة مركزة على حاجات الشعب ـ شعب يثق بذاته ويؤمن بأن كل شيء مرتّب وفق نظام مفيد لبني البشر.

لكن الظروف السيئة قضت على الحالة السابقة: الفوضى من الداخل والآشوريون من الخارج. أخفقت الأماني؛ وفُقِدت إرادة القوة. ولم يعد باستطاعة الإله القديم أن يعمل شيئاً لشعبه: كان عليهم أن يتركوه. لكنهم صمموا على الاحتفاظ به؛ وكان ثمن ذلك أنهم غيّروا مفهومهم له. وحين يشعر شعب أنه موشك على الفناء، وأن إيمانه بالمستقبل وأمله بالحرية يتلاشيان تماماً؛ وحين يعي أن أكثر الأمور إفادة هي الخنوع، وأن فضائل الخنوع هي شرط استمراره؛ على إلهه أن يتغيّر أيضاً: لم يعد يهوه إسرائيل إله العدالة، ولا تعبيراً عن الثقة القومية بالذات ـ صار الآن مجرّد إله مقيّد بشروط عديدة. أصبح الآن منافقاً، إلهاً للخير فحسب. لا خيار أمام الآلهة: إما أن تمثّل إرادة القوة، فتكون بالتالي آلهة قومية؛ أو أن تمثّل عجز القوة، وتصبح من ثم آلهة خيّرة. ـ وهنا يأتي دور الكهنة؟!

لقد أخذ الكهنة المفهوم الجديد للإله واستخدموه كأداة لتحقيق أهدافهم. وكان أول ما حصل على أيدي الكهنة، أن كل القيم الطبيعية، فقدت «طبيعتها». فلم تعد الأخلاق أعمق غرائز حياة الأمة: صارت مجرّدة، صارت مناقضة للحياة ـ إنها تفسّخ أساسي للمخيلة، عين سوء تصيب كل شيء. لقد أبعد الكهنة السببية الطبيعية، ففسّروا الحظوظ الجيدة كعطايا من الله، والنكبات والمصائب كعقاب إلهي على الآثام والمعاصي: وكان هذا أكذب أشكال التفسير، والذي وقف فيه المفهوم «علة ومعلول» على رأسه إلى الأبد. وكل ما أعقب غير طبيعي، كان نتيجة لذلك.

صار إلههم إله الضعفاء والمعاقين. لكنهم لم يسمّوا أنفسهم «ضعفاء» أو «معاقين»، بل خيّرون. وظهرت القصة الثنوية لإله الخير والشر ـ صارت مفهومة تماماً. فالغريزة ذاتها التي تجعل شعباً مُختلاً خاضعاً يختصر إلهه إلى «طيبة في ذاتها»، تجعله يشطب الصفات الخيّرة من إله محتليه، حيث يثأر لذاته بتحويل إله ساداته إلى شيطان. ـ الإله الخيّر والشيطان: كلاهما نتاج للتفسّخ.

لقد زيّف الكهنة تاريخ بني إسرائيل كلّه. فعهد المملكة العظيم، صار عهد انهيار وسقوط؛ واعتُبِر التيه وسنوات النكبة، عقاباً خالداً على هذا العهد العظيم. وحوّلت كل شخصيات إسرائيل الكبيرة إلى متعصّبين أو كفرة. وبُسّطت كل علوم النفس، إلى طاعة لله أو عصيانه.

كان التزوير الأدبي ضرورياً: هنا، تمّ اكتشاف الكتاب المقدّس، ثم راحوا يعمّمونه بكل الأبهة الكهنوتية التي لا بدّ أن ترافقها مشاعر التوبة والعويل على سنوات الإثم الطويلة. لكنهم في وثائق التوراة، زيّفوا كل ماضيهم القومي حين حوّلوه إلى مصطلحات غبية: آليه إنقاذ سخيفة من الإثم والعقاب، أو الطاعة والثواب. وهكذا، فصل الشعب اليهودي ذاته عن كل

ما هو قوي فوق الأرض، معتبراً إياه «غير مقدس» إلى درجة إنكار الواقع اليهودي ذاته.

لقد أسيء استخدام اسم الله، حين دعوا حالة المجتمع التي يقرّر فيها الكاهن قيمة الأشياء، «مملكة الله»؛ وسمّوا أداة ارتكاب هذه الجريمة، «إرادة الله»؛ فكان واحدهم يقوّم الناس وفق مساعدتهم لدور الكاهن أو مقاومتهم له. لكن كيف يعرف الناس «إرادة الله»، أي الشرط للحفاظ على قوة الكاهن؟ بالكتاب المقدّس. فالشرّ كله يكمن في اغتراب الأمة عن الكتاب المقدّس. لقد كشف الله إرادته لموسى ـ كما قالوا. ومنذ ذلك الحين تمّ ترتيب كل أمور الحياة بحيث لا يُسْتَغنى عن الكاهن أبداً.

كانت كل حوادث الحياة الطبيعية «وما زالت؟!» مرتّبة بحيث يظهر هذا الطفيلي المقدّس ليزيل عنها الصفة الطبيعية ـ بلغته: يقدّسها! فعبر طفيلية الكاهن، يصبح كل ما هو قيّم في ذاته، عديم القيمة بدرجة يستحيل وصفها. كانت قيمته: إنكار الخاصية الطبيعية. وكان دستوره: معصية الله «الكاهن» تعني الإثم. فالتصالح مع الله يعني ـ خضوعاً للكاهن مضموناً أكثر. فوحده الكاهن يخلّص من الآثام. ومن وجهة نظر نفسية، لا غنى عن الآثام في أيّ مجتمع يديره الكهنة: إنّها المحركات الفعلية للسلطة؛ فالكاهن يعيش على الآثام، يحتاج إلى مهمّة الآثام. فدستوره الأسمى: الله يسامح من يتوب ـ بدقّة أكثر: الله يسامح من يُخضع ذاته للكاهن.

باختصار: تاريخ إسرائيل كلّه بلا قيمة، فليغرب عن وجهي ـ وجه نيتشه[1]. وفي منهج «إعادة تقويم كل القيم»، للشعب اليهودي أهمية واحدة: «فيه تبدأ ثورة العبيد في اللاأخلاق»[2].

---

(1) Siehe: Der Antichrist, 16, 26, 27.

(2) Jenseits von Gut und Böse, 195.

الكتاب المقدس:

رغم موقف نيتشه المعادي للكتاب المقدّس العبراني في «عدوّ المسيح» إلّا أن ثمة آراء أخرى سابقة، تخالف الرؤيا السابقة تقريباً، نجدها في «بمعزل عن الخير والشر»، خاصة في معرض مقارنته بين العهدين، القديم والجديد.

يرفض نيتشه تماماً مسألة جمع العهدين في مجلّد واحد هو «الكتاب المقدّس المسيحي». وعمل كهذا برأيه، «جرأة كبرى وخطيئة ضد الروح القدس»[1]. ففي «العهد القديم» اليهودي، كتاب العدل الإلهي، ثمة أناس وخطابات وأشياء من طراز عظيم، إلى درجة أنه يمكن وضعه بجانب المدوّنات اليونانية والهندية؛ إنه معيار للكبير والصغير. مقابل ذلك، فكتاب «النعمة»، أي العهد الجديد، تفوح منه رائحة المغالي في التقوى، «رائحة حنون، حنون للمغالي في التقوى»[2].

3 ـ الإسلام:

رغم ندرة إشارات نيتشه إلى العرب والإسلام، إلّا أنها تستدعي التناقض؛ لكن هذا التناقض سرعان ما يزول إذا فهمنا نوعية التفكير النيتشوي. فهو يفصل بحزم بين الإسلام كحضارة والإسلام كدين. لذلك نجده معجباً تماماً بالحضارة الإسلامية، خاصة حين يقارنها بالحضارة المسيحية؛ لكنه لم يتردد لحظة في جعل مؤسس الإسلام، النبي محمد، يأخذ عن بولس «كذبة» الاعتقاد بخلود النفس. وكانت، برأيه، «الشيء الوحيد الذي أخذه عن المسيحية». وتلفيق بولس هذا، هو الوسيلة لإنشاء حكومة استبدادية كهنوتية: وسيلة لاستبداد الجماهير، وتحويلها إلى قطعان[3].

---

(1) Ebda, 52.
(2) Ebda, 52.
(3) Vgl. Der Antichrist, 42.

إن موقف نيتشه من الثقافة العربية، خاصة في إسبانيا، إيجابي للغاية، إلى درجة أنه يعتبره أقرب إليه، وأكثر مباشرية في التحدّث إلى ذوقه وحواسه، من اليونان والرومان. لكن المسيحية سرقت هذا العالم الثقافي العربي - داسته. لماذا؟ لأنه كان نبيلاً؛ لأن كنوز الحياة الإسلامية النادرة الرائعة قالت نعم للحياة.

من ناحية أخرى، يشن نيتشه حرباً شعواء على الصليبيين، وينفي عنهم صفة الحرب الدينية، ويقول إنهم كانوا قراصنة، أرادوا سرقة الشرق، الذي كان غنياً. لقد حارب الصليبيون، برأيه ثقافة الأجود بهم أن ينبطحوا بذل أمامها - ثقافة يبدو حتى القرن التاسع عشر بالمقارنة معها فقيراً جداً ومتأخراً جداً. ثم يشن هجوماً آخر على الألمان، الذين حاربوا مع الصليبيين، والذين كانوا دائماً في خدمة الكنيسة في حربها ضد كل ما هو نبيل. حتى ينتهي إلى القول: ليس لك خيار حين تتواجه مع الإسلام والمسيحية؛ تماماً كما هي الحال حين تتواجه مع عربي ويهودي: سلمٌ وصداقة مع الإسلام، حرب بلا رحمة مع روما[1]. - ذلك ما شعر به فريدريك الثاني[2].

(1) Vgl. Der Antichrist, 60.

(2) فريدريك الثاني (1194 - 1250): ملك صقلية منذ عام 1198، ملك ألمانيا منذ عام 1212، وإمبراطور الغرب منذ عام 1220؛ كان في نزاع مستمر مع البابوية؛ ورغم حرمانه كنسياً، شارك في الحملة الصليبية السادسة، حيث تفاوض مع المسلمين بدل قتالهم، وأخذ منهم مدينة القدس دون إراقة دماء. كان بلاطه في صقلية البقعة الأكثر ثقافة في أوروبا ربما؛ وفريدريك ذاته، رغم كونه «الإمبراطور المسيحي الجرماني» فقد كان مسلماً أكثر منه مسيحياً؛ إيطالياً أكثر منه ألمانياً. لكن حاجته إلى الدفاع المستمرّ ضد قوى البابا، أدّت إلى نوع من الفساد في شخصيته في سنواته الأخيرة، وهو ما انتهى به إلى نوع من جنون الاضطهاد. كان إعجاب نيتشه به لا يضاهى، ومن الممتع أن نعرف لماذا يدعوه في نهاية نقاش يحكي عن إمكانية أن النوع الرفيع من البشر يأتي كنتيجة للتمازج العرقي: «أول أوروبي يتناسب مع ذوقي» (Jenseits von Gut und Böse, 200). - كانت ثقافة فريدريك الشمولية، المحور الأول لإعجاب نيتشه.

4 ـ البوذية:

تتعدد إشارات نيتشه إلى البوذية، لكنها ترتبط دائماً بحديثه النقدي عن المسيحية. فثمة آراء تضيء نقاط الالتقاء بين الديانتين؛ وأخرى أكثر بكثير من الأولى، تشير إلى أبرز الفروقات بينها.

الديانتان، برأيه، تقربان بعضهما بكونهما ديانتين عدميتين متفسّختين[1]. كما يلتقي مؤسسو هاتين الديانتين في اختراعهما المشترك الذي اقتضى فرض نوع من الحياة ومن العادات اليومية واللذين يفيدان في تأديب الإرادة وإبعاد الملل في آنٍ؛ ثم تفسير ذلك كلّه على أنه الحاوي الفعلي للقيمة، الأمر الذي يجعله مِلْكاً يقاتل المرء لأجله ويموت إذا كان ذلك ضرورياً. لقد وجد مؤسسو هاتين الديانتين أصنافاً من الناس جيدين ولطفاء وغير هجوميين بسبب الخمول، وهم بالتالي يعيشون زاهدين دوماً دون أدنى حاجات. لنوع من البشر كهؤلاء، قدّم مؤسسو هاتين الديانتين اعتقاداً يطلق وعوداً يمنع عودة التعب الدنيوي. لكن عبقرية المؤسسين كانت تكمن في معرفة ذلك النوع من البشر، وضمّهم بعضهم إلى بعض؛ وبهذا الشكل تصبح المؤسسة الدينية حفلة تعارف دائمة طويلة[2]. هذا يعني، أنه لا يوجد في المسيحية والبوذية شيء أجدر بالاهتمام من فنّهما في تدريب المنبوذين[3].

«قال بوذا: «لا تتملّق من يحسن إليك!» يردد المرء هذا في أية كنيسة مسيحية: ـ إنه ينظّف الجوّ مباشرة من كل ما هو مسيحي»[4]. عبارات نيتشه السابقة، تختصر تقريباً الفروق الجوهرية، برأيه، بين البوذية والمسيحية:

---

(1) Der Antichrist, 20.
(2) Vgl., Die frohliche Wissenschaft, 353.
(3) Vgl., Jenseits von Gut und Böse, 61.
(4) Vgl., Jenseits von Gut und Böse, 142.

إذا كانت ثمة قرابة بين الديانتين، لكن البوذية أكثر واقعية من المسيحية بألف مرة. فهي تمتلك في بنيانها إرث طرح هادئ وموضوعي للقضايا، إذ إنها جاءت للوجود بعد حركة فلسفية استمرت مئات السنين؛ وساعة وصولها أزيل مفهوم الإله. فالبوذية بالتالي هي الديانة الوضعية الوحيدة التي أرانا إياها التاريخ. ونظرية المعرفة البوذية لا تتكلّم عن الصراع مع الإثم بل مع المعاناة. لقد أسست على حقيقتين فيزيولوجيتين: سرعة إحساس تتجلّى في المقدرة المهذبة على التألّم، والقوة الفكرية المفرطة. وضد حالة الوهن التي قد تنشأ عن وضع كهذا، أخذ بوذا معايير صحيّة: الحياة في الهواء الطلق، حياة التجوال؛ الاعتدال في الطعام والتأنّق فيه؛ الحيطة حيال المشروبات الكحولية؛ والحيطة حيال المشاعر المُغْضبة - إنه يطالب بأفكار تؤدي إلى الراحة والسرور. واستنبط أيضاً وسائل من أجل عدم التعوّد على الآخرين. أما الخير واللطف فقد فهمهما كمعزّزين للصحة. إنّه لا يطالب بالكفاح ضد أولئك الذين يفكّرون بشكل مختلف؛ فتعاليمه لا تقاوم شيئاً أكثر مما تقاوم شعور الثأر، الكراهية، والغلّ («العدائية لا تنتهي بالعدائية»: اللازمة التي تنتقل في المذهب البوذي بأكمله). وحارب الضجر الروحاني الذي اكتشفه، والذي يعبّر عن ذاته كموضوعية مفرطة (أي: ضعف الاهتمام بالذات؛ فقدان مركز الجاذبية والأنانية) بتوجيه حتى الاهتمامات الروحانية إلى الشخص الفرد. ففي البوذية الأنانية واجب[1].

البوذية بالمقارنة مع المسيحية، أهدأ وأصدق وأكثر موضوعية بمئة مرة. إنها ليست بحاجة لجعل معاناتها ومقدراتها على المعاناة لائقتين لذاتها عن طريق تفسيرها كإثم - إنها تقول فقط ما تعاني منه: «أنا أعاني»[2].

(1) Vgl., Der Antichrist, 20.
(2) Vgl., ebda, 23.

إن ما سبق البوذية من ظرف كان مناخاً لطيفاً جداً، أعرافاً ليبرالية ولطيفة جداً - وليس التسلّط العسكري؛ فالحركة استوطنت بين الطبقات العليا بل المتعلمة. وكان هدفها الأسمى البهجة، السكون، غياب الرغبة - وقد تحقّق هذا الهدف. البوذية ديانة لا يتوق فيها المرء إلى الكمال فحسب، بل الكمال هو الحالة السوية[1].

إن ما انتهى بالموت على الصليب في المسيحية، كان بالنسبة للبوذية، بداية جديدة أوّلية مطلقاً، لحركة سلم، لسعادة فعلية على الأرض، وليست موعودة فقط. - وهنا يكمن الفرق بين الديانتين: لا تعطي البوذية وعوداً لكنها تفي بها. في حين تعطي المسيحية ألف وعد لكنها لا تفي منها بشيء[2].

البوذية ديانة كائنات بشرية متأخرة في المجيء، ديانة أعراف تنمو بلطف ونعومة؛ والبوذيون أشخاص مفرطو التفكير، يحسّون بالألم بسهولة شديدة.

البوذية ديانة نهاية الحضارة وتعبها؛ والمسيحية لا تجد حتى حضارة في الوجود - لكنها تؤسس حضارة إذا ما احتاجت[3].

5 - الهندوسية:

نادراً ما يتحدّث نيتشه عن الهندوسية. لكنه في «شفق الأوثان» و«عدوّ المسيح»، يتوقف بإسهاب عند كتاب «شريعة مانو»، وذلك لمقارنته طبعاً، بالكتاب المقدّس. أما في «حُمْرة الفجر»، فيشير مرة واحدة إلى البراهمانية والمسيحية، معتبراً الأولى وصفة للشعور بالقوة لأولئك الذين يستطيعون

(1) Vgl., ebda, 21.
(2) Vgl., ebda, 42.
(3) Vgl., ebda, 22.

السيطرة على ذواتهم، والذين هم يمتلكون بالتالي إرادة القوة؛ في حين إن الثانية، برأيه، وصفة للذين لا يمتلكون مثل هذا الشعور[1].

«شريعة مانو» الكتاب الهندوسي، كما يراه، عمل روحاني رفيع، بطريقة لا تقبل المقارنة. وحين نُسَمّي الكتاب المقدس بالنّفس ذاته، فذلك إثم ضد الروح. فشريعة مانو كتاب يعتمد على أساس فلسفة فعلية، وليس مثل الكتاب المقدّس، الذي هو مجرّد حموضة يهودية كريهة الرائحة، مكوّنة من الحاخامية والخرافة[2].

يقول نيتشه إن «شريعة مانو» تفرض تربية ليس أقل من أربع سلالات في الوقت ذاته: عرق كهنوتي، عرق محارب، عرق تاجر ومزارع، وسلالة أخيرة حقيرة هي الشودرا. ولا نعود هنا، كما هي الحال في المسيحية، بين مدجّني الحيوانات: لا بدّ من وجود كيان بشري أكثر دماثة وعقلانية بمئة مرة حتى يتصوّر خطة تربية كهذه. كان هذا النظام الطبقي بحاجة لأن يكون مريعاً في النضال، ليس ضد الوحوش، بل ضد نقيضه، ضد الكيان البشري - غير المربّى، الكيان البشري الهجين - المنبوذين[3].

لكن كراهية المنبوذين بهذا المذهب الإنساني، أي، النظام الطبقي، صارت في نهاية الأمر ديانة، صارت عبقرية. - فالمسيحية - التي نمت من جذور يهودية والتي يجب أن لا تُفْهم إلّا كنتاج لهذه التربة، تمثّل الردّة على أخلاقية التربية في شريعة مانو، على العرق، على التميّز - إنها الديانة المعادية للآرية بلا منازع: المسيحية هي إعادة تقويم كل القيم الآرية، انتصار قيم المنبوذين، البشارة

---

(1) Vgl., Morgenröte, 65.

(2) Vgl., Der Antichrist, 56.

(3) Vgl. Götzen - Dammerung, Die «Verbesserer» der Menschheit, 3.

المكرزة للفقراء والوضعاء، الثورة الجماعية لكل مداس، معدم، بائس، ضد العرق ـ إنها ثأر المنبوذين الخالد الذي أخذ صورة ديانة الحب[1].

إن شريعة مانو، برأيه، هي الوسيلة التي تسيطر بها الأنظمة النبيلة على الرعاع؛ وكل الأشياء التي تصبّ عليها المسيحية غضب سوقيتها، تعامل هنا بحب وثقة. فلا يوجد كتاب فيه العديد جدّاً من الشارات الحنون واللطيفة للمرأة ككتاب «شريعة مانو»[2].

حين نقارن بين هدف المسيحية وهدف شريعة مانو، ندرك مباشرة، برأيه، لانبالة الوسائل المسيحية. شريعة مانو شريعة خيّرة: إنّها تختصر تجربة قرون طويلة وحكمتها وأخلاقيتها؛ إنها توطّد قيماً موجودة، ولا تخلق شيئاً جديداً.

لا تحكي شريعة مانو أبداً عن فائدة الشرع، عن سببه، لأنها بهذه الطريقة سوف تفقده النبرة الإلزامية، التي هي الشرط المسبق للإطاعة. ففي مرحلة محدّدة من تطوّر شعب، تعلن أكثر الطبقات استنارة، أي أكثرها حكمة وتأملاً، لهذا الشعب عن العرف الذي يجب أن يلتزم به، فيتثبت ويتوطّد. إن هدف هؤلاء الأكثر استنارة هو تقديم حصاد التجريب الأغنى والأكمل، للوطن. لكن استمرارية التجريب ممنوعة. ولأجل ذلك يُشاد حائط مزدوج: الوحي، بمعنى أن علّة هذه الشرائع ليست بشرية؛ والتقليد، بمعنى أن الشرع موجود منذ عهود سحيقة ـ الله أعطاه، والأجداد عاشوه.

إن الأساس المنطقي لإجراء كهذا يتجلّى في نيّة شق طريق تدريجي لحياة مميّزة باعتبارها لاوعياً صحيحاً: تُحْرَز آلية كاملة للغريزة ـ وهي الشرط المسبق لأيّ نوع من السيادة، لأيّ نوع من كمال فن العيش.

---

(1) Vgl., ebda, 4.

(2) Vgl., Der Antichrist, 56.

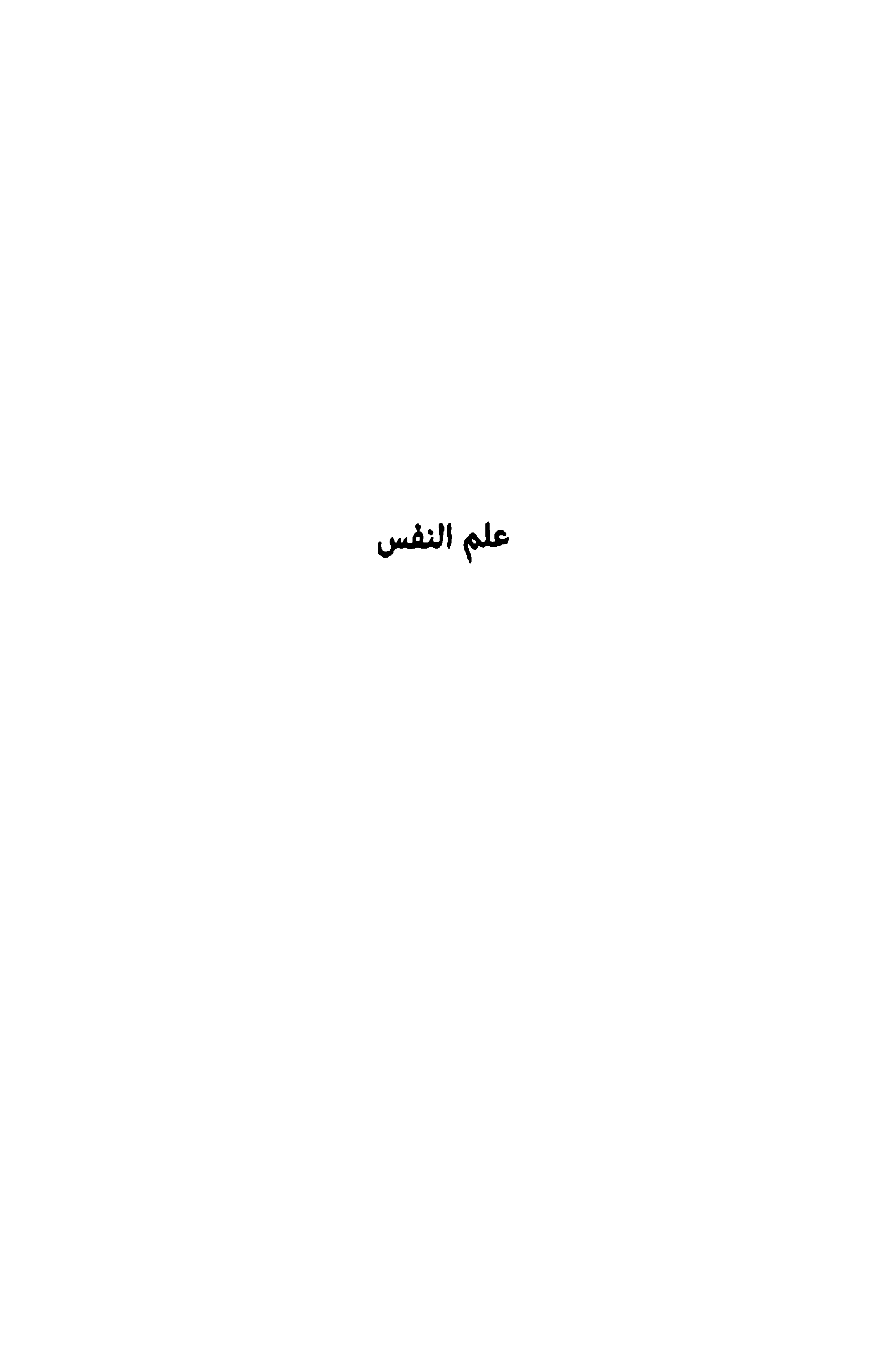
إن إقامة شريعة مانو، تعني أن نُحوّل شعباً الحق في أن يصبح سيداً، كاملاً ـ أن يطمح إلى أرفع فنٍّ للعيش. من أجل تحقيق هدف كهذا، يجب أن تتأصّل الشريعة في اللاوعي ـ وهذا هو هدف كل كذبة مقدّسة.

إن نظام الطبقات، كما تقدّمه شريعة مانو، هو التكريس الأوحد للنظام الطبيعي. ففي كلّ مجتمع صحي، يمكن أن نميّز ثلاثة أنماط من البشر بميول فيزيولوجية مختلفة: النمط المسيطر روحانياً، النمط المسيطر عضلياً ومزاجياً، والنمط الذي لا يتميّز بصفة أو بأخرى ـ الغالبية العظمى.

إن الطبقة العليا تحكم، ليس لأنها تريد ذلك، بل لأنها تكون ذلك، فهي ليست حرة في أن تكون من المرتبة الثانية. أما الطبقة المتوسطة، فالتخصص غريزة طبيعية بالنسبة لها، والتوسط شرط أساسي لوجود الاستثناءات. فالثقافة العليا مرتبطة به: الثقافة الرفيعة هرم، لا يمكن أن يقف إلّا على قاعدة عريضة، شرطها الأساسي الأوّل طبقة متوسّطة متماسكة بقوّة.

نظام الطبقات يشكّل وحدة القانون الأرفع للحياة ذاتها؛ ففصل الأنماط الثلاثة ضروري لوقاية المجتمع، للسماح بوجود أنماط أرفع وأرفع ـ فشرط وجود الحقوق بأية حال هو تفاوت الحقوق. الحق ميزة، وميزة كل مِنّا مجددة بطبيعة كيانه[1].

(1) Vgl., Der Antichrist, 57.



علم النفس

1 ـ علم نفس الاعتقاد والمعتقدين:

مبدأ الاعتقاد: «إن الذي لا يعرف كيف يملي إرادته على الأشياء يضع فيها على الأقل معنى: أي يعتقد أن ثمة إرادة فيها»[1]. بهذه الحكمة المختصرة، يشرح نيتشه بإسهاب فهمه للآلية النفسية لفعل «الاعتقاد». فالشخص الذي لا يستطيع استخدام الأشياء وفق إرادته الخاصة، أي لا يستطيع أن يضع فيها معنى لصالحه، يعتقد أن في هذه الأشياء معنى لا يفهمه، كإرادة الله أو ما شابه. وعلى هذا الأساس يفسّر الإنسان كل شيء وفق هذا المفهوم للعالم، بمعنى أنه يجب أن يكون في كل شيء غاية أو قوة تحرّكه، وذلك كي يفهم أن لبعض الأفعال إرادة ما تسبّبها، كما يملي هو إرادته على أشياء بعينها.

لكن: ما فائدة الاعتقاد عملياً؟ يقول نيتشه بسخرية بليغة: «تحمي الاعتقادات حتى من الزكام. هل أصيبت امرأة تعرف أنها ترتدي ثياباً جميلة بالزكام يوماً؟ أفترض أنها تكاد لا ترتدي ثياباً»[2] ـ بمعنى أن ملابسها عارية للغاية. إن الإنسان بحاجة «نفسياً» إلى الاعتقاد لحاجته إلى الحماية: فالاعتقاد يحمي. وخوف المرء على اعتقاداته ليس ذا منشأ موضوعي، بل ذاتي. فالاعتقاد هو الأساس الذي تقوم عليه «ذاتية» أمان الفرد؛ وحين يهزّ واحدنا هذا الاعتقاد عن طريق كشف مدى زيفه مثلاً، فهو لا يهزّ الاعتقاد وحده، بل يهزّ ذاتية الأمان المرتكزة عليه. وحين يستخدم نيتشه، عدوّ المرأة الشهير، النساء كأنموذج للتدليل على أصحاب

(1) Götzen - Dammerung, Sprüche und Pfeile, 18.

(2) Ebda, 25.

الاعتقادات السهلة، فذلك لمعرفته مدى عاطفية المرأة في تبنّي قناعة - وربما: تبديلها. لذلك، يقول: «إني أشك بالنظم وأتحاشاها. فالرغبة بنظام نقص في الكمال»[1].

ثمة مسألة هامة جداً في النقد النيتشوي لعلم نفس الاعتقاد: الفرق الشاسع بين ما هو حقيقي وما «يُعْتَقد» بأنه حقيقي. وهو يرى أنه، في أديان الشرق، تحتل مسألة «ما يُعْتَقَد» أنه حقيقي أهمية عظمى. في حين تصادفنا اللامبالاة المطلقة في شأن الأمر الحقيقي. لكن الحقيقة من جهة، و«الاعتقاد» أن شيئاً حقيقي من جهة أخرى، عالمان مختلفا الأهمية بالكامل، بل شبه متضادين، ويصل إليهما المرء بطرق مختلفة أساساً. ولتفسير الكلام السابق، يضرب نيتشه المثال التالي:

إذا كانت ثمة سعادة في «الاعتقاد» بأن الذات مفدية من الإثم، فليس من الضروري أن يكون الإنسان آثماً أوّلاً، بل ما يهم هو أن «يعتقد» أن ذاته آثمة: «الاعتقاد» هو الضروري. وهكذا تتم الإساءة إلى سمعة العقل والمعرفة، وتصبح الطريق إلى الحقيقة محرّمة. هنا يلعب الأمل دوراً بارزاً كمحرّض على الحياة أقوى من أيّ مثال آخر عن السعادة التي تحدث فعلياً. ويُعزّز المعانون، على نحو خاص، بأمل لا يمكن دحضه بأية حقيقة واقعية - الأمل بالماوراء[2].

مقولة أخرى يشير إليها نيتشه في نقده «لعلم نفس الاعتقاد»، هي «البرهان بالإمكانية» - فماذا يعني ذلك؟

يضرب نيتشه مثالاً شهيراً يتعلّق بتأكيد رجال الدين بأن «الاعتقاد يبارك» هو حقيقة لا ريب فيها. لكن هذه المباركة ليست مبرهنة بل موعودة ليس

---

(1) Ebda, 26.

(2) Vgl., Der Antichrist, 23.

إلا. والمباركة هنا مشروطة بالاعتقاد: سوف يصبح المرء مباركاً لأنه يعتقد. لكن ما يعد به رجل الدين المُعْتَقدين يتعذّر الوصول إليه على أيّ جهاز ضبط موجود فعلاً؛ فكيف يُبَرهن على ذلك إذن؟ إنه «البرهان بالإمكانية»: أي: مجرّد «اعتقاد» آخر يقول إن النتيجة التي يعد بها المرء ذاته من «الاعتقاد»، لن تحقق في الظهور. وإذا ما وضعنا الكلام السابق في صيغة مختصرة، نقول: أعتقد أن الاعتقاد يبارك - فهو «بالتالي» حقيقة. لكن هذه الـ«بالتالي» ستكون السخافة بعينها كمعيار للحقيقة.

وإذا ما افترضنا أن حقيقة أن الاعتقاد يبارك تُعْتَبر مُبَرْهنة: هل هذا يعني أن المباركة - بتقنية أدق: السرور - ستعتبر برهاناً على الحقيقة يوماً؟ إطلاقاً: لأن أقوى مشاعر الارتياب بالحقيقة تتملّكنا عندما تدخل أحاسيس السرور في الإجابة عن سؤال: ما هي الحقيقة؟.

الحقيقة: إن البرهان بالسرور هو برهان عن السرور ليس إلا. ومتى أُثبِت أن الأحكام الحقيقية «تُسر» أكثر من الأحكام المزيّفة؟ إن خدمة الحقيقة هي الخدمة الأقسى - يجب أن نحارب لأجلها. وماذا يعني أن يكون المرء نزيهاً في الأمور الفكرية؟ إنه يعني أن يكون قاسياً على قلبه، محتقراً للمشاعر الناعمة؛ أن يجعل كل «نعم» و«لا» مسألة ضمير.

الاعتقاد يصنع بركة: إنه «بالتالي» يكذب[1].

لكن: كيف يمكن أن نفهم مقولة، «الاعتقاد يصنع بركة»؟ يقول نيتشه: إن زيارة سريعة لمشفى المجانين تقدّم شرحاً مسهباً لمثل هذه الأمور.

فالعالم الداخلي للإنسان المتديّن، يشبه للغاية العالم الداخلي للمنهكين

---

(1) Vgl., ebda, 50.

والمفرطي الإثارة. لكنه يرفض أن يقوم بزيارة لهذا رجل دين، لأنه ينكر، بالغريزة، أن المرض مرض[1].

لا يقف المرء عند حدود رجال الدين، بل يتعداه إلى الفلاسفة. فهؤلاء، برأيه، عدا الشكوكيين منهم، يعتبرون المشاعر براهين، والاعتقاد معياراً للحقيقة. وقد حاول كانط إعطاء هذا الشكل للتفسّخ، هذا العوز للضمير العقلاني، طابعاً علمياً عبر مفهوم «العقل العملي»: لكنه بذلك صمم عقلاً مخصّصاً لحالة يفترض فيها أنه على الإنسان أن لا يقلق على العقل: أي، حين تجعل الأخلاقية، الطلب الفائق «أنت سوف»[2] ذاتها مسموعة.

إن ذوقاً جمالياً، برأي نيتشه، هو الذي أعمى الجنس البشري لفترة طويلة فعلاً؛ وهكذا فقد رَغِب بأثر منظراتي عن الحقيقة، ورغب بشكل خاص أن يقدّم رجل المعرفة انطباعاً قوياً على الحواس[3].

«الاعتقاد يبارك»، يعني، برأي نيتشه، أن صاحب «اعتقاد» كهذا، مرض. ويختار الكنيسة (ـ والمسيحية ـ)، كمثال على الدين الذي يسعى إلى إمراض الناس «باعتقاداته»، بغية السيطرة عليهم: فالإمراض هو الهدف الخفي لإجراءات الفداء في الكنيسة. وكل عرف الكفّارة والفداء المسيحي هو جنون دائري مغوٍ بطريقة منهجية. والإنسان المعتقد، المتديّن، كما ترغب به الكنيسة هو المتفسّخ الأنموذجي. فالحالات العليا التي ألصقتها المسيحية على الجنس البشري، بوصفها الأكثر قيمة، هي أشكال صرع ـ فقد قدّست الكنيسة المجانين والدجّالين العظماء لإجلال الله الأعظم.

---

(1) Vgl., ebda, 52.

(2) وتعني الأوامر المطلقة التي يعلّقها رجال الدين والفلاسفة في عنق البشرية تحت عناوين برّاقة، كالشريعة والأخلاق.

(3) Vgl., ebda, 13.

والمرء بالتالي ليهتدي إلى المسيحية - يجب أن يكون مريضاً كفاية كي يفعل ذلك[1].

يقول نيتشه إن ثمة خطأ شائعاً بين رجال الدين، يكمن في اعتقادهم أن من لديه اعتقاد «أو إيمان» صحيح، فإنه سينتج عن ذلك أفعال صحيحة[2]. لكن الحقيقة أن الاعتقاد لا يحرك سوى التفكير أو المخيّلة: مثلاً: إذا أراد أحدهم لعب كرة المضرب، فإنه لا يكفي إطلاقاً «اعتقاده» أنه لاعِب جيد، بل يجب أن يمارس هذه اللعبة كثيراً حتى يعتاد على الحركات الخاصة بها. فالاعتقاد الصحيح بأيّ شيء يأتي عن الأقل بعد إتقان تنفيذه بشكل مقبول. وهذا الخطأ - الاعتقاد أن الاعتقاد «أو أخاه الإيمان» يجب أن يكون قبل الأفعال - هو سبب وجود مؤمنين كثيرين لا يستطيعون العمل حسب إيمانهم، أي ليست لديهم الخبرة الكافية أو التدريب اللازم لفعل الخير حسب «اعتقادهم» الديني.

وهكذا، فنيتشه يفضّل الاعتقاد بالخرافات على الاعتقاد الديني. فالاعتقاد بالخرافة مرتبط بالذات الفردية، بمعنى أنه نتيجة لتفكير فرداني؛ وحتى لو كانت النتيجة خاطئة، فإنّها على الأقل نتيجة تفكير يمارسه الفرد بذاته، ودون اعتماد على الرأي العام. لذلك فاعتقاد كهذا إشارة إلى تزايد الاهتمام بالتفكير الذاتي. - يقول نيتشه: «المعتقد بالخرافات، قياساً إلى المتديّن، هو دائماً أكثر «شخصانية»، وهكذا أيضاً يكون المجتمع الخرافي، أي يوجد فيه الكثير من الفردانيين ومن اللّذة في الفردانية. من وجهة نظر كهذه، تظهر الخرافة أكثر تقدماً من الإيمان، وبإشارة إلى ذلك، يصبح العقل أكثر استقلالية ويريد حقّه»[3].

---

(1) Vgl., ebda, 51.

(2) Vgl., Morgenröte, 22.

(3) Die fröhliche Wissenschaft, 23.

لا يتوقف رفض نيتشه عند حدود الأنظمة الدينية واعتقاداتها، بل يتعدى ذلك إلى سائر الأنظمة الفلسفية. لأنه «في كل فلسفة هنالك مرحلة تخطو فيها «قناعة» الفيلسوف داخل المشهد»[1]؛ «تظهر لرجل العلم في رحلاته المتواضعة والمرهقة، والتي غالباً ما تكون رحلات عبر الصحراء، تلك السرايات المتلألئة التي تدعى «الأنظمة الفلسفية»: مع قوّة خادعة آسرة تُظهِر أن كلّ المعضلات وأعذب جرعة من ماء الحياة الحقيقي قريبان من متناول اليد؛ فيفرح قلبه، ويبدو للرّحالة المُرهَق أن شفتيه ستمسّان للتوّ هدف كل مثابرة الحياة العلمية وأحزانها، فيضغطهما بالتالي إلى الأمام طوعيّاً. من دون ريب، ثمة طبائع أخرى، والتي تقف، كما لو أنها مُربَكة بالوهم الجميل: تبتلعها الصحراء وهي ميتة بالنسبة للعلم. طبائع أخرى أيضاً، والتي اختيرت من قبل هذا العزاء الذاتي، تزداد شكاستها وتلعن الطعم المالح الذي تخلّفه هذه الأشباح وراءها في الفم والذي يؤدّي إلى عطش عنيف ـ دون أن يقترب المرء خطوة واحدة من أيّ نوع الينابيع»[2].

الإيمان:

الإيمان، كما يعرّفه نيتشه، هو «عدم الرغبة بمعرفة ما هو حقيقي»[3]. الشك، في منطق الإيمان، إثم. لذلك فكلّ طريق علمية إلى المعرفة يجب إنكارها باعتبارها محرّمة[4]. الإيمان انتحار مستمر للعقل[5]؛ تضحية بالحرية، بالزهو؛ وهو في الوقت ذاته، عبودية، سخرية من الذات، عاهة الذات، ووحشية[6].

---

(1) Jenseits von Gut und Böse, 8.
(2) Assorted Opinions and Maxims.
(3) Der Antichrist, 52.
(4) Vgl., ebda.
(5) Vgl., Jenseits von Gut und Böse, 46.
(6) Vgl., ebda.

يربط نيتشه بقوة بين الإيمان والنفاق. فأوّل المبادئ عنده لفهم القدّيسين العظماء، هو «عندما يكون الإيمان أكثر استعمالاً، فعالية، وإقناعاً من النفاق الواعي»[1]؛ والنفاق في الإيمان، برأيه، يصبح بريئاً بشكل غريزي مباشرة.

الإيمان، من ناحية أخرى، نوع من الكذب الساذج[2]، إنه حالة مَرَضية، بوصفه مطلقاً؛ بعكس الشك الذي يعكس حالة صحّية[3]. لذلك فإن من يشعر بأنه موجود للفهم وليس للإيمان، يرى كلّ المؤمنين متطفّلين ومحدثين للضجيج: فهو يبعدهم عنه[4].

يمكن اكتشاف اللاهوتي من ذلك الإكراه على الكذب[5]. لكن القناعات، برأيه، أخطر على الحقيقة من الكذب. ولكل قناعة تاريخها. فقد صارت قناعة بعد أن لم تكن كذلك لفترة طويلة. ويمكن اكتشاف كافة أنواع الكذب في الأشكال الجنينية للقناعات. لكن أبرز أنواع الكذب يتحلّى في فقدان الرغبة برؤية ما يراه الآخرون، أو كما يرى الآخرون. وسواء أحدثت الكذبة أمام شهود أم لا: لا أهمية لذلك. فالكذبة الأكثر شيوعاً هي تلك التي يخبرها المرء لذاته؛ فالكذب على الآخرين استثناء نسبياً ـ هذا هو الشرط البدئي للقناعات.

كان رجال الدين أذكياء وحاذقين في فهم ما سبق كلّه. وكانوا يعرفون بالتالي أن ثمة معارضة قد تنشأ على المفهوم «اقتناع»، أي الكذب مبدئيّاً لتحقيق غاية بعينها، لذلك استخدموا حكمة إدخال المفهوم «إله» «إرادة الله»، «وحي الله» مكانه ـ ثمة مسائل لا يستطيع الإنسان تقرير حقيقتها أو زيفها. ما الغاية من

---

(1) Götzen - Dammerung, Streizüge eines Unzeitgemaβen, 42.

(2) Vgl., Jenseits vin Gut und Böse, 180.

(3) Vgl., ebda, 152.

(4) Vgl., ebda, 112.

(5) Vgl., Der Antichrist, 52.

إعطاء الوحي للجنس البشري؟ الجنس البشري لا يستطيع أن يعرف من تلقاء ذاته ما هو خير وما هو شر، لذلك علّم الإله الجنس البشري إرادته - وكان ذلك كله اختراعاً يهودياً.

وبحسب أخلاقيات رجال الدين: رجل الدين لا يكذب. كي يكذب، لا بدّ أن يكون الإنسان قادراً على تقرير ما هو حقيقي هنا. وهذا تحديداً ما لا يستطيع الجنس البشري فعله؛ ورجل الدين بالتالي هو الناطق الوحيد باسم اللّه.

إن «الشريعة»، إرادة اللّه، الكتاب المقدس، الوحي - هي أسماء مجردة للشروط التي يصل في ظلّها رجل الدين إلى السلطة، ويحافظ بها على سلطته. وهذه المفاهيم موجودة في أسس كل المنظمات الكهنوتية، كل أبنية السلطة الكهنوتية الفلسفية. وهذه «الكذبة المقدسة» مشتركة بين كونفوشيوس، شريعة مانو، محمد، والكنيسة المسيحية. «الحقيقة موجودة»: هذا يعني، حيثما سُمِع، رجل الدين يكذب[1].

من صفات رجل الإيمان البارزة الأخرى: كراهية تغيير الأفكار. فمن المتعارف عليه أن كل شيء يتغيّر بشكل دائم، بما في ذلك الأفكار. ونحن لا نستطيع أن نمنع شيئاً من التغيّر، لكننا نستطيع أن نهدّئ من حركة التغيير ذاتها. والإيمان الذي هو ثابت - نسبياً على الأقل - بحاجة إلى تهدئة الأفكار حتى لا يتغيّر محتواه، جوهره، بعنف، مما قد يؤدي إلى تدميره. فإذا ما أردنا تثبيت مجموعة أفكار، والتي تعني في النهاية نظاماً فكرياً كالدين أو العقيدة، يجب أن نجعل التفكير عند مجموعة من الناس، يمشي في الطريق ذاتها لفترة طويلة (- أو محدّدة على الأقل). إن هدف كل الأديان هو أن تكون أبدية. لذلك نسأل أنفسنا: هل على أصحاب هذه الأديان أن يجعلوا تفكيرهم بطيئاً جداً إلى درجة التوقف

(1) Vgl., Der Antichrist, 55.

أو الامتناع عن التفكير؟ بلغة نيتشه: «ثمة حاجة إلى الجهل الفاضل، إلى ضارب إيقاع الروح البطيء الثابت الجاش؛ كي يبقى معاً مؤمنو الإيمان الكبير ويستمرّ رقصهم»[1].

من صفات رجل الإيمان البارزة الأخرى، برأي نيتشه، عجزه في «فقه اللغة». وفقه اللغة، عنده، يعني عدم الحسم في التفسير. والطريقة التي يفسّر بها رجل الإيمان متهوّرة جدّاً[2]. وهو أيضاً، برأيه، إنسان تابع بالضرورة - فهو لا يستطيع فرض نهايات من عنده أبداً. «المعتقد» لا يخص ذاته؛ إنّه لا يستطيع أن يكون سوى وسيلة، ويجب أن يستعمل؛ إنّه بحاجة إلى أحد غيره، والذي يجب أن يستعمله. وغريزة هذا التابع توفّق بين أرفع أنواع الشرف والأخلاقية الغيرية: الاعتقاد تعبير عن الغيرية، عن اغتراب الذات[3]. لكن هؤلاء يلبسون سوقية وجودهم وهرائه إصبع الله غير معجزة النعمة، التدبير الإلهي، تجربة الانعتاق. مع ذلك فتدبيرهم الإلهي هذا هو أقوى رفض للإله يمكن أن نفكّر به. فأدنى أثر للتقوى فينا يجب أن يجعلنا نشعر أن إلهاً يشفي من الرشح في لحظة مناسبة، هو إله سخيف جدّاً ويجب التخلص منه حتى لو كان موجوداً. إله يُقَدّم كخادم أليف، هو تسمية لأغبى أنواع الحوادث التصادفية[4].

«الاقتناع» برأي نيتشه، يعني «لا» لرؤية أمور عديدة، «لا» لأن تكونَ غير منحاز في أيّ شيء. لذا فالمعتقد غير حرٍّ البتة في أن يكون له «ضمير» في مسألة «حقيقي» و«مزيّف»: فأن يكون نزيهاً في هذه المسألة، يعني دماره فوراً. وهكذا فالوضع المَرَضي لمنظور إنسان القناعات يجعل منه متعصّباً. لكن

(1) Die fröhliche Wissrnschaft, 76.

(2) Vgl., Der Antichrist, 52.

(3) Vgl., ebda, 54.

(4) Vgl., ebda, 52.

المواقف الأكبر من الحياة لهذه الأرواح المريضة، تستقطب الجماهير العريضة ـ المتعصبون فاتنون، والجنس البشري ما زال يفضّل رؤية إيماءات على الإصغاء إلى أسباب[1].

في عالم المؤمنين لا شيء سوى الخيالات الصرفة: عالمهم الخيالي بحت مميّز حتى عن عالم الأحلام، بل ويضرّ به كثيراً ـ فالأخير يعكس واقعاً، في حين إن الأول يبخس العالم قيمته ويزيفه وينكره. ومنذ اختُرع مفهوم «طبيعة» كمفهوم مناقض لمفهوم «إله» صار على الطبيعة أن تكون كلمة تعني التوبيخ ـ هذا العالم الخيالي الصرف مؤسس على كراهية الطبيعة (ـ الواقع الفعلي ـ)، وهو تعبير عن استياء عميق من هذا الواقع. لكن من ذا الذي يضع نفسه خارج الواقع؟ إنه الذي يعاني منه، لكن أن تعاني من الواقع، يعني أن تكون مخفقاً واقعياً.

دستور التفسّخ: إن تغلّب مشاعر الاستياء على مشاعر السرور هو علّة الدين والأخلاق الخياليين[2].

الصلاة:

يقول نيتشه محللاً علم نفس الصلاة: الصلاة محركة لهؤلاء الناس الذين ليست لديهم أفكار من ذواتهم والذين لهم علوّ نفس لا ندري من أين أو أنه يحدث دون أن يُلاحظ: ماذا عليهم أن يفعلوا في الأماكن المقدّسة وفي كل الحالات الهامة، التي تستلزم هدوءاً ونوعاً من الوقار؟ لقد أمرت لهم حكمة كل مؤسسي الأديان الصغيرة والكبيرة بقاعدة الصلاة حتى لا يُزعَج «المؤسسون» على الأقل، فالصلاة كعمل طويل وآلي للشفتين مرتبط بجهد التذكّر وبوضع معين ذاته لأيدٍ وأرجل

(1) Vgl., ebda, 54.

(2) Vgl., ebda, 15.

وعيون... لا يريد الدين من هؤلاء «المصلّين» أكثر من أن يكونوا هادلين بالنسبة لعيونٍ وأيدٍ وأرجلٍ وكل أنواع الأعضاء[1].

لذلك، يقول: الصلاة عارا لكن ليس لكلّ «الناس» بل لك ولي ولمن ضميره في راسه أيضاً.

عار عليك الصلاة! أنت تعرف جيداً أن شيطانك الجبان الذي بداخلك هو الذي يريد شبك الأيدي ووضع الأيدي على الرحم ومن ثم الاستراحة. وهذا الشيطان الجبان هو الذي حثّك عن القول: الله موجود[2].

الإنسان الفائق يتكلم:

إن العدم موجود خلف كل مُثُل الإنسان العليا، ليس العدم فحسب ـ بل أيضاً: الباطل، اللامعقول، المريض، الجبان، المرهق، تفلّ من كل الأنواع من فنجان حياته بعدما استنزفها.

إن ما يبرّر الإنسان هو حقيقة الواقعية ـ وسوف تبرّره إلى الأبد. وكم سيبدو الإنسان الفعلي أقلّ قيمة بكثير حين يُقارن مع بشر مرغوب به، كذبة كريهة ليس إلّا؟ مع أيّ نوع من الإنسان المثالي؟[3].

إن العقول العظيمة شكّاكة. فنشاط عقل، حريته، مبرهنان بالشكوكية. والقناعات سجون. إنها لا ترى مسافة كافية، لا ترى ما تحتها. والتحرر من القناعات، والقدرة على رؤيا غير محدّدة، أمران يخصان القوة. لا يسمح للعقل العظيم بالقناعة إلّا إذا كانت هنالك حاجة لذلك. لكن بوصفها وسيلة فقط: فالعاطفة العظيمة تستخدم القناعات وتستهلكها، لكن لا

---

(1) Die fröhliche Wissenschaft, 128.

(2) Vgl., Also sprach Zarathustra, Von den Abtrünnigen, 2.

(3) Vgl. Götzen - Dammerung, Streitzüge eines Unzeitgemaβen, 2.

تخضع لها، فهي تعرف الها مسيطرة؛ كما تعرف أن الحاجة إلى اعتقاد شرط أساسي للضعف"[1].

لقد حاول الناس أن يثبتوا سابقاً أن ليس هنالك إله؛ لكننا نحاول الآن أن نُظهر كيف يمكن أن يأتي إلى الوجود الاعتقاد بإله؛ وهذا برهان أقوى من برهان عدم وجوده"[2].

نحن لم نعد نقتفي أثر أصل الإنسان في «الروح» في «الألوهة»، لأننا أعدناه إلى ما بين الحيوانات. إنه أقوى الحيوانات لأنه أمكرها فقط: وروحانيته نتيجة لذلك. باطلٌ هو القول إن الإنسان هو الهدف السرّاني العظيم للارتقاء الحيواني. فالإنسان ليس تاج الخليقة؛ وكل مخلوق يقف قربه في مستوى الكل ذاته. لكن الإنسان أقل الحيوانات نجاحاً وأكثرها مرضاً، لأنه ضل عن غرائزه بأخطر ما يمكن.

لقد تجرّأ ديكارت وفكّر بالحيوان كآلة: لكنه استثنى الإنسان. أما نحن فنكرّس كل علومنا النفسية اليوم لإثبات صحة هذه الفرضية؛ ولإظهار أن معرفتنا بالإنسان هي معرفة حقيقية إلى درجة أنها معرفة به كآلة علىٍ وجه التحديد.

كان الإنسان يقدم سابقاً مع «إرادة حرة»، كدوطة من نظام أعلى: اليوم أخذنا حتى الإرادة منه، فلم تعد تُفْهَم كَمَلكة. لا تفيد الإرادة إلّا في تحديد نتيجة؛ فهي نوع من ردّات الفعل الفردية التي تنبع بالضرورة من جملة محرضات منسجمة جزئيّاً، ومتناقضة جزئيّاً.

لقد رأى المرء سابقاً في وعي الإنسان، في «روحه»، الدليل على أصله الرفيع، على «ألوهيته»؛ وكي يجعل ذاته كاملة، نُصِح بسحب حواسه إلى داخل ذاته

---

(1) Vgl., Der Antichrist, 54.

(2) Vgl., Morgenröte, 95.

بطريقة السلحفاة، بالتوقّف عن القيام بأيّ اتصال مع كل ما هو أرضي؛ وبأن يضع جانباً إطاره القابل للموت: عندئذٍ سيبقى منه الجزء الرئيس، «الروح الصافية».

لكن الروح عَرَض لخلل في العضوية؛ فهي محاولة، تلعثم، تخبّط، وجهد تصرف فيه كمية ضخمة من الطاقة العصبية دون ضرورة. كذلك أيضاً: ما من شيء كامل ما دام يتوعّى.

الروح الصافية، إذن، حماقة صافية: وإذا نحن رمينا النظام العصبي والحواس، أي «الإطار القابل للموت»، فإننا نخطئ التقدير ـ هذا هو كل شيء[1].

من مثلنا أدرك التصادفية المنكرة التي لعبت حتى الآن لعبتها بالنسبة لمستقبل الإنسان! من مثلنا يعاني من الإقلاق الذي لا يقارن! من مثلنا يدرك بنظرة واحدة كثرة الإمكانيات لتربية الإنسان، ويعرف بكل معارف ضميره كيف لا يزال الإنسان غير مستنفذٍ لإمكانياته الكبيرة!

إن من يمعن النظر في هذه الإمكانيات يعرف اشمئزازاً أكثر من بقية الناس، وربما أيضاً مهمة جديدة[2].

«كل الآلهة ميتون: نريد الآن أن يعيش الإنسان الفائق. هذه هي إرادتنا الأخيرة في منتصف النهار العظيم»[3].

2 ـ علم نفس رجال الدين:

في مقاطع كثيرةً من كتبه، يتوقف نيتشه بإسهاب عند «علم نفس رجال الدين». لكنه نادراً ما يتحدّث عن غير الكهنة المسيحيين؛ وأحياناً اليهود. مع

(1) Vgl., Der Antichrist, 14.

(2) Vgl., Jenseits von Gut und Böse, 203.

(3) Also sprach Zarathustra, Von der schenkenden Tugend, 3.

ذلك، فهذا لا يمنع عن تعميم النظرة النيتشوية للخلفية النفسية لرجال الدين جميعهم، مسيحيين وغير مسيحيين، خاصة في الديانات «التوحيدية».

قصة آدم في التوراة، واحدة من أقدم النصوص الميثولوجية في العالم، وهي موجودة في التراث الميثولوجي الشرق أوسطي، قبل اليهود وبعدهم؛ لكن نيتشه يراها من زاوية مختلفة عن كلّ الذين عالجوها: «هل القصّة الشهيرة الموجودة في بداية التوراة مفهومة؟ قصة خوف الله من العلم؟ يبدأ كتاب الكهنة هذا بعقبة الكاهن الداخلية العظيمة: لديه خطر عظيم واحد، فالله لديه خطر عظيم واحد.

الإله العجوز، الروح الكاملة، الحبر الأعظم الكامل، الكمال بأكمله، يتنزّه في الحديقة: لكنه ضَجِر. يخترع إنساناً ـ الإنسان مُسَلٍّ... الإنسان ضجر أيضاً... تعاطف الإله مع نوع الأسى الوحيد... يخلق حيوانات... أولى أخطاء الإله: لم يجد الإنسان الحيوانات مسلّية ـ فقد سيطر عليها، بل لم يعد يرغب أن يكون حيواناً... وخلق الإله المرأة... كانت هنالك نهاية للضجر ـ ولشيء آخر أيضاً... المرأة ثاني أخطاء الإله... فالمرأة في جوهرها حيّة، حوّاء ـ كل كاهن يعرف ذلك؛ وكل شرّ يأتي إلى العالم عبر المرأة ـ كل كاهن يعرف ذلك أيضاً. والعلم يأتي إلى العالم عبرها أيضاً... فعبر المرأة وحدها تعلّم الرجل تذوّق طعم شجرة المعرفة. استحوذ خوف مميت على الإله العجوز. صار الإنسان ذاته أعظم أخطاء الإله؛ فقد خلق الإله لنفسه منافساً، فالعلم يصنع نداً لله ـ لو يصبح الإنسان علمياً ينتهي كل شيء مع الكهنة والآلهة! أخلاقيّاً: العلم محظور. العلم هو الخطيئة الأولى، بذرة كلّ الخطايا. وهذا وحده يشكّل أخلاقية. سوف لن تعرف ـ والبقية تأتي. لكن خوف الإله المميت من العلم لم يمنعه عن أن يكون داهية. كيف يستطيع المرء أن يحمي ذاته من العلم؟ كانت تلك مشكلته لفترة طويلة. ارمِ بالإنسان خارج الجنة. فالسعادة والراحة تتركان مجالاً للتفكير ـ وكل الأفكار أفكار

سيئة... سوف لن يفكّر الإنسان. الكاهن في ذاته «الإله» يخترع الألم، وكل أنواع البؤس ـ وهي لا شيء سوى ذرائع للكفاح ضد العلم، فالأسى لا يسمح للإنسان بالتفكير... مع ذلك، ارتفع بناء المعرفة مقتحماً السماء، ليصل إلى الكاهن... يخترع الإله العجوز الحرب، يجعل الشعوب تدمّر بعضها بعضاً (لذلك كان من الواجب أن يحتاج الكهنة إلى الحرب دائماً)... ماذا؟ المعرفة، أي التحرّر من الكاهن، تتزايد رغم الحرب. قرار أخير: أغرقوا الإنسان»[1].

«إن بداية التوراة تحتوي كل علم نفس الكاهن. فالكاهن يعرف خطراً عظيماً واحداً: العلم ـ المفهوم الصحيح للعلّة والمعلول. لكن العلم لا يزدهر إلّا في ظروف سعيدة فقط. فيجب بالتالي أن يجعل الإنسان غير سعيد... هذا هو منطق الكاهن... وهكذا دخل العالم الإثم... فمفهوم الخطيئة والعقاب، نظام الأخلاق العالمي كلّه، اختُرع لمعارضة العلم ـ لمعارضة انفصال الإنسان عن الكاهن. سوف لن ينظر الإنسان حوله، سوف ينظر إلى داخله؛ سوف لن ينعم النظر بتعقّل وحرص في كل الأشياء كي يتعلّم، سوف لن ينظر البتة! سوف يعاني... بطريقة تجعله بحاجة للكاهن في كافة الأوقات. أبعدوا الأطباء: فالإنسان بحاجة إلى مخلّص. ـ إن مفهوم الخطيئة والعقاب، ومذاهب «النعمة»، «الفداء»، «الغفران» ـ وهي أكاذيب دون أدنى حقيقة نفسية ـ كانت قد اختُرعت لتدمير المعنى السببي للإنسان: إنها اعتداء على مفهوم العلّة والمعلول. اعتداء من قبل الكاهن... فحين لا تعود النتائج الطبيعية لفعل ما «طبيعية» بل يُفَكَّر بها كنتائج للأشباح المفاهيمية، كنتائج أخلاقية فحسب، فقد يتدمّر الشرط المسبق للمعرفة... الإثم، شكل تعنيف الذات، اختُرِع ليجعل العلم والثقافة مستحيلين: والكاهن يحكم عبر تلفيق الإثم»[2].

---

(1) Der Antichrist, 48.

(2) Der Antichrist, 49.

في الأرضية النفسية لرجال الدين، يميِّز نيتشه عناصر كثيرة، نذكر أبرزها:

1 ـ فشلهم في تفسير ما يلقون من حوادث، وتعلّقهم بالأمور المنافية للعقل: «كمفسّرين لما نلقى ـ نوع من الاستقامة غريب عند كل مؤسسي الأديان ومن على شاكلتهم: فهم لم يجعلوا ما يلقونه ضمير معرفة. ماذا جرّبت أصلاً؟ ماذا حدث حولي وفي داخلي عندئذٍ؟ هل كان عقلي مستنيراً كفاية؟ هل كانت إرادتي متوجّهة ضد كل غش الحواس، وشجاعة في منع الوهم؟». ـ لم يسأل أيّ منهم، هؤلاء المتديّنون اللطفاء، ولا يسألون هذا حتى الآن: لكن عندهم عطش لأشياء ضد العقل، ولا يريدون أن يتعبوا في إرضائه (العطش). ولذلك يجرّبون العجائب والولادات الجديدة، ويسمعون أصوات صغار الملائكة»[1].

2 ـ حب السيطرة: إن تلفيقات رجال الدين، مثل مفاهيم الماوراء، يوم الدينونة، خلود النفس، والنفس ذاتها، هي وسائل تعذيب، أشكال قساوة نظامية، صار الكاهن بفضلها سيّداً، وسيبقى سيّداً. والجميع يعرفون ذلك، لكنهم لا يتبدّلون[2].

إن مشكلة رجل الدين، كمحب لاواعٍ للسيطرة، هو اعتباره ذاته مختاراً من الله؛ وهذا يعني أنّ أيّ مبدأ اختيار آخر، بالنسبة له وللذين يتبعونه، هو ببساطة عالَم (ـ مقابل ما وراء): شرّ بحدّ ذاته[3]. وهو، بقصد أو دون قصد، يريد أن يجعل من كل شخص نسخة ثانية عنه، ويسمّي ذلك تربية: لكنها في الحقيقة ليست سوى رغبة في الحصول على مُلك جديد[4].

---

(1) Die froliche Wissenschaft, 319.

(2) Vgl., Der Antichrist, 38.

(3) Vgl., ebda, 38.

(4) Vgl., Jeseits von Gut und Böse, 194.

3 ـ الغرور: «يقولون لك لا تدين، لكنهم يرسلون إلى جهنم كل من يقف في طريقهم. فعن طريق السماح لله بأن يدين فإنهم هم أنفسهم يدينون؛ وعن طريق تمجيد الله يمجّدون أنفسهم؛ وعن طريق المطالبة بتلك الفضائل التي هم أنفسهم تحديداً مؤهلون لها ـ بل التي هم بحاجة إليها كي يبقوا فوق القمّة إلى الأبد ـ يحيطون بأبّهة عظيمة القتال من أجل الفضيلة، القتال من أجل انتصار الفضيلة... فتظهر حياتهم المتواضعة وكأنها واجب»[1].

لقد وضع هؤلاء حجزاً على الأخلاقية، لأنهم يعرفون الفائدة المرتجاة منها. فالجنس البشري يمكن أن يقاد من أنفه على أحسن وجه بالأخلاقية. لكن الواقع يقول إن أوعى غطرسة لأولئك الذين اختارهم الله يجري تقديمها هنا باعتبارها تواضعاً: فقد وضع واحدهم ذاته، جماعته، الخير، العدل، مرّة وإلى الأبد، في جانب، جانب الحقيقة ـ ووضع الباقي، أي العالم، في جانب آخر. وكان ذلك أخطر أنواع جنون العظمة. ثم بدأت السقطة الصغيرة من المتعصّبين والكَذَبة تطالب بمفاهيم الله، الحقيقة، النور، الروح، الحب، الحكمة، الحياة، كما لو أنها مرادفات لذواتهم، ويفصلون أنفسهم بالتالي عن العالم[2].

4 ـ تفضيلهم التأمّل على الفعل: إن رجال الدين يفضلون التأمّل، أي العالم الفكري و«الإيماني»، على العالم الفعلي والواقعي. لذلك كان على رجال الدين الذين يفضّلون التأمّل على الفعل أن يشيروا بإصبع الاتهام إلى كل ما ينتج عن الواقع وعن التعامل معه. وكانت النتيجة أنهم حاولوا تصعيب الحياة على كل من هو ناشط في تحقيق أهدافه العملية في هذا العالم،

---

(1) Der Antichrist, 44.

(2) Vgl., ebda, 44.

وذلك عن طريق القول إن كل ما هو دنيوي أقل قيمة مما هو غير دنيوي؛ ويربطونه بالإثم"[1].

اللاهوتيون ـ الفقهاء:

«اللاهوتيون ـ الفقهاء» هم المسؤولون عن محاولات إعطاء المفاهيم الماورائية تلويناً عقلانياً؛ والذين يعتبرهم نيتشه أعداء له: «اللاهوتيون وكل من يمتلك دماً لاهوتياً في عروقه»[2].

يشترك «اللاهوتيون ـ الفقهاء» مع رجال الدين في سمات عديدة، أبرزها:

1 ـ الغطرسة: «لقد اكتشفت الغريزة اللاهوتية المتغطرسة حيثما يشعر أيّ شخص بأنه مثالي ـ حيثما ينتحل أيّ شخص، بفضل أصله الرفيع، حقّاً بإلقاء نظرات غريبة ومتفوقة على العالم... ومثل الكاهن تماماً، يضع المثالي كل المفاهيم العظيمة في يده (ـ وليس فقط في يده!) ويلعب بها باحتقار خيري ضد «الفهم»، «المشاعر»، «المفاخر»، «الفخامة»، «العلم»، فهو يرى أن هذه الأشياء دونه، أي إنّها قوى مؤذية وعفوية تحلّق «الروح» فوقها، باكتفاء ذاتي صرف ـ وكأن التواضع، العفّة، الفقر، وبكلمة واحدة: القداسة، لم تؤذِ الحياة حتى الآن بشكل لا يوصف وأكثر من أيّ نوع من الخوف أو الرذيلة... وما دام الكاهن، ذلك الناكر للحياة، المسمّم لها والمفتري عليها بإعلان الإيمان يعتبر نوعاً من الكائنات البشرية أكثر سموّاً، لن يكون هنالك جواب عن سؤال: ما هي الحقيقة؟ لقد أوقفنا الحياة على رأسها حين اعتبر هذا المدافع عن الإنكار والعدم، عن سابق قصد وتصميم، ممثلاً «للحقيقة»»[3].

---

(1) Vgl. Morgenröte, 41.

(2) Vgl. Der Antichrist, 8.

(3) Vgl., ebda, 8.

2 ـ خداع الذات: لقد طوّرت الغريزة اللاهوتية عنصراً مثيراً للشفقة دعي الإيمان، وهو يعني إغلاق الإنسان عينيه في المسائل التي تخصه وإلى الأبد، حتى لا يعاني من رؤية الزيف العضال. ومن هذا المنظور الخاطئ لكل الأشياء، صنع اللاهوتي لذاته أخلاقية، قداسة، وفضيلة؛ ووحّد الضمير الطيّب بالرؤيا المزيّفة. ثم راح يطالب بأن لا يُمْنح أيّ نوع آخر من المنظورات أية قيمة، بعدما مزج قداسته الخاصة بأسماء مثل «إله»، «فداء»، «خلود»(1).

3 ـ تزييف الواقع الفعلي: إن الغريزة اللاهوتية هي الأكثر انتشاراً، فهي الشكل التحت أرضي للزيف الموجود فوق الأرض. ويمكن أن نقدم معياراً تقريبياً للحقائق، يقول: إن ما يشعر به اللاهوتي حقيقياً، لا بدّ أن يكون مزيّفاً. فغريزة الحفظ الذاتي عنده تمنعه أن يأخذ أيّ جزء من الواقع الفعلي بعين الاعتبار أو حتى أن يتحدث عنه. وحيثما يمتد تأثير اللاهوتي، يقف حكم القيمة على رأسه[1].

لكن تأثير اللاهوتيين امتد حتى الفلسفة: فالفلسفة تفسّخت بالدم اللاهوتي؛ والفلسفة الألمانية هي أساساً لاهوت مخادع[2]. لذلك لن نُدْهش إذا اكتشفنا إرث الكاهن، الخداع المضلل ذاتياً، عند الفيلسوف ـ فهو مجرد تطور لاحق للنمط الكهنوتي[3].

* * *

يقول نيتشه: ما دام رجل الدين يعتبر الأنموذج الأرفع فكل نوع قيّم من الكائنات البشرية يفقد قيمته[4].

---

(1) Vgl., ebda.

(2) Vgl., ebda, 10.

(3) Vgl., ebda, 12.

(4) Vgl. Götzen - Dammerung, Streizüng eines Unzeitgemäβen, 45.

العلم؟

ماذا يهم رجل الدين من العلم! إنه فوقه!

لكن رجل الدين هو الحاكم حتى الآن، وهو الذي يحدد مفهوم «الحقيقي» و«غير الحقيقي»[1].

لا بأس!

سيأتي يوم يعتبر فيه الأنموذج الأدنى، أكثر الأنواع كذباً، أكثرها عدم احتشام بين كل الكائنات البشرية ـ ومنبوذاً[2].

لكن: متى؟!

(1) Vgl. Der Antichrist, 12.

(2) Vgl.Dammerung, ebda.

كلمة النهاية

«كم من الجرائم ترتكب باسمك أيتها الألوهة». من قتلة المسادا إلى محاكم التفتيش حتى أفغانستان الجزائر... والبقية تأتي.

عزاؤنا الأوحد، ما قاله نيتشه يوماً عن ستندال: «ربما أحسدُ ستندال؟ لقد سرق مني أفضل نكتة إلحادية، والتي كان باستطاعتي صنعها: «عذر الله الوحيد أنه غير موجود»»[1].

(1) Ecce Home II, 3.

